AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01043 6958

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

ID 101-b3584
26-6

HN
15
L3612
1913

سر تطور الأمم

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنسباوية

احمد فتحي زغلول باشا

وكيل نظارة الحقانية

يطلب من ملتزم طبعه ونشره

بنجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

سنة ١٣٣١ — ١٩١٣

90
L49s

٩٠١
لغ٣٠س

745

« حقوق الطبع محفوظة للمعرب »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على رسوله وسائر أنبيائه

نقلت الى العربية منذ ثلاث سنين كتاب روح الاجتماع للدكتور العلاّمة جوستاف لوبون فاستقبله القرّاء بالحسنى وكان واضعه قد سبقه بمؤلف من نوعه سماه سرّ تطوّر الأمم رجع اليه فى مواضع كثيرة من روح الاجتماع . فلما قرأته رأيت من الواجب أن أقدمه لقرّاء الكتاب الأول حتى يجتمع لديهم الفرع بأصله . وقد لا يمضى زمن طويل فأعرض عليهم كتابين جديدين لهذا العالم الكبير : روح السياسة وروح الاشتراكية . فالكتب الأربع سلسلة أفكار واحدة كل كتاب يبرزها في صورة خاصة تمتاز بفائدتها عن البقية

على هذا العزم أمسكت عن تلخيص الكتاب فى مقدمة طويلة وقد أنزع الى مثل ذلك اذا قدر لى الوفاء بالوعد وأتممت تمثل تلك المبادئ

احمد فتحى زغلول

القاهرة فى مارس سنة ١٩١٣

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

سر تطوّر الأمم

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

مقدمة المؤلف

مذاهب المساواة فى العصر الحاضر

وروح التاريخ

نشوء فكرة المساواة وتقدمها — نتائج هذه الفكرة — ما يترتب على العمل بها — تأثيرها على الجموع فى الوقت الحاضر — موضوع هذا الكتاب — البحث عن أهم العوامل فى تطور الأمم بوجه عام — هل لعناصر كل مدنية أعنى النظامات والفنون والمعتقدات وغيرها روح نفسية خاص بكل امة — تقلبات التاريخ ونواميسه الثابتة

تبنى مدنية كل أمة على بعض مبادىء أساسية والى هذه المبادىء ترجع نظامات تلك الأمة وآدابها وفنونها . وتحتاج المبادىء فى تكونها الى زمن طويل كما أنها لا تندثر الاَّ بعد زمن طويل

وقد يكون المبدأ فاسداً غير أن فساده لا يظهر الا

لأهل العقول النيرة ولكنه يكون حقيقة ثابتة فى نظر الكافة وتكر العصور وهى تتأثر به وتجرى عليه . ومن هنا كان من الصعب تقرير مذهب جديد أو هدم مذهب قديم مقرر فى الأذهان . والناس يستمسكون عادة بالمذهب القديم كما يستمسكون بالآلهة وان تقضى زمانهم

غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون فى الناس فكرة المساواة بين الأفراد وبين الشعوب

خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت فى عقولهم ارتكازاً قوياً وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس الجمعيات الأولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب فى اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها الاَّ الله

على أن الفروق بين الفرد والفرد وبين الأمم بعضها وبعض من الأمور المسلمة فلا ينكرها أحد حتى أولئك الفلاسفة ولكنهم تعجلوا بالاعتقاد أنها ناشئة عن اختلاف التربية وأن الناس يولدون متساوين فى الذكاء وطيب النفس وأن النظامات هى التى أفسدت عليهم ذلك . ومن يسهل

عليه هذا الاعتقاد لا يصعب عليه ايجاد الدواء . لذلك قالوا إنه يتم بتغيير النظامات وتوحيد التعليم للجميع . وهكذا أصبحت النظامات ومسائل التعليم ذخر اهل مذاهب الحرية (الديمقراطية) وعدتهم فى زماننا هذا وهى التى يرون فيها الوسيلة لابطال الفروق التى تجرح مبادىء العصر الحاضر بعد أن صارت تلك المبادىء من المعبودات

الاَّ أن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التى أوجدها الزمان فى عقول الأفراد والشعوب لا تزول الاَّ بتراكم المؤثرات جيلاً بعد جيل . ودل علم النفس بقدر ما وصل اليه الآن كما أثبتت التجارب أن النظامات والتربية التى تليق بأفراد أو بأمة قد تضر بأفراد آخرين أو بأمة أخرى . لكن ليس من مقدور الفلاسفة إبطال مذهب انساب فى الأذهان يوم يبين لهم أنه غير صواب فالفكر اذا علق بالنفوس يشبه النهر اذا طغى يفيض ماؤه من فوق الجسور ويغرق الحقول ويخرب المزارع وما من شىء يعوق اندفاعه

ما من عالم نفسى ولا من سائح ذى نظر ولا من سياسى

مجرب الاَّ وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالى أعنى مذهب المساواة الذى قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام فى القارة الأوروبية ثورة ارتج الكون منها وأذكى فى القارة الأميركية نار حرب الأجناس وصيَّر جميع المستعمرات الفرنساوية فى حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقلما يوجد بين أولئك المفكرين من يقوم فى وجهه بمعارضة ما

ولم يدخل مذهب المساواة حتى الآن فى دور السقوط بل هو لا يزال ينمو ويعظم فهو الذى يدَّعى الاشتراكيون انه الوسيلة لاسعاد أمم الغرب مع أن الظاهر أنه يمشى بتلك الأمم الى الاستعباد . وباسمه قامت المرأة تطلب المساواة بالرجل فى الحقوق وفى التربية وقد نسيت ما بين النوعين من الفروق العظيمة فى القوة العاقلة. وهى اذا فازت بمطلبها جعلت الاوروبى رجلا مهما الرجل لا يعرف له بيتاً يأوى به ولا عائلة يسكن البرها

أما الأمم فتكاد لا تهتم بما نشأ عن هذه المبادىء من الانقلابات السياسية والاجتماعية ولا بالتى ستحدثه فى المستقبل مما هو أشد تأثيراً وأعظم ضرراً . وليس رجال السياسة بأكثر اهتماماً من أممهم بهذه الحوادث لقصر حياتهم فى مراكزهم فى

هذا الزمان ولأن السيطرة أصبحت للرأى العام فهو القاهر فوق الحكومات ولا مندوحة لأحد عن اتباعه

ليس لمذهب من المذاهب من الأهمية الاَّ بمقدار تأثيره فى نفوس المتخلقين به . أما ما فيه من صواب أو خطأ فمسألة نظرية لا تهم الاَّ الحكماء . ومتى دخل مبدأ فى اذهان العامة وجب الخضوع لنتائجه كلها صواباً كان المبدأ أو خطأً

ومن أجل ذلك نرى أهل مذهب المساواة يسيرون فى تقريره من طريق النظامات والتعليم ويطمعون بذلك فى تقويم مظالم النواميس الطبيعية وفى صبغ عقول زنوج (المرتينيك) وسكان (جوادلوب) و (السنغال) وعرب الجزائر وأهل آسيا بصبغة واحدة وهم فيما ذهبوا اليه واهمون . فمن المحقق أن خيالهم لن يتحقق . غير أن التجارب وحدها هى التى تبرهن على ما ينجم عن الخيالات من الشرور . أما العقل فليس فى استطاعته تحويل الناس عن معتقداتهم

والغرض من هذا الكتاب بيان الأخلاق النفسية التى تتكون منها روح الشعوب والبرهنة على أن تاريخ الأمة ومدنيتها منتزعان من هذه الأخلاق . وعليه فانَّا سنبحث

فى كيفية تكوّن الأمم التاريخية وتربية مزاجها العقلى . ونريد بالأمم التاريخية الأمم العارضة بعد التاريخ وهى التى كوّنتها الفتوحات والهجرة والتقلبات السياسية ثم نبيّن أن تاريخها مأخوذ من تكوّنها على هذا النحو ونشير الى ما عليه أخلاق الأمم من الثبات أو التقلب . وننظر هل الأمم وكذا الأفراد سائرون الى التساوى أو هم سائرون الى الضد بحيث يكثر التفاوت بينهم وتعظم الفروق . ونرى بعد ذلك هل عناصر كل مدنيـة وهى الفنون والنظامات والمعتقدات مظهر من مظاهر روح أمتها ولذلك لا يتأتى نقلها من أمة الى أخرى . وننتهى ببيان الحوادث القهرية التى ينطفئ بسببها نبراس المدنية ويعفو أثرها . ولا نتعرض فى أبحاثنا هذه الى التفصيلات الاَّ بقدر ما تمس الحاجة اليه لبيان المبادئ وتقريرها اذ كل ذلك مما أطلنا شرحه فى عدة مؤلفات نشرناها عن المدنيـة الشرقية وما هذا السفر الصغير الاَّ خلاصة ما قد فصلناه

أخص ما استجليته من سياحاتى البعيدة فى البلاد المختلفة هو أن لكل أمة مزاجاً عقلياً ثابتاً كثبات خواصها التشريحية وهـذا المزاج هو الذى تصدر عنه مشاعرها وأفكارها

ونظاماتها ومعتقداتها وفنونها . وقد ظن (توكفيل) وغيره من كبار المفكرين أن نظامات الأمم أصل فى تطورها . ولكنى على الضد من ذلك أرجو أن أقيم البرهان من أحوال الأمم التى بحث فيها (توكفيل) على أن تأثير النظامات فى المدنية ضعيف جداً وأنها فى الغالب مسببات وقلما تكون أسباباً

ومما لا شبهة فيه أن تاريخ الأمم يتكون من عناصر شتى ومن تلك العناصر كثير من الحوادث الفردية والاتفاقات والعوارض التى كانت وكان يجوز أن لا تكون . الا أن هناك غير هذه الحوادث العرضية نواميس كلية ثابتة تسير المدنية فى كل أمة بمقتضاها . وأهم هذه النواميس وأعمها وأثبتها هو المزاج العقلى . وما حياة الأمة أعنى نظاماتها ومعتقداتها وفنونها الا اللحمة الظاهرة من نسيج روحها . ولا يتسنى لأمة أن تغير نظاماتها أو معتقداتها أو فنونها الا اذا غيرت روحها . نعم ليس هذا هو الذي نراه مسطوراً فى التاريخ ولكنا سنبرهن بالسهولة على أن ما فيهِ مما يخالف نظرنا مبنى على ظواهر لا حقيقة لها

اجتهد المصلحون الذين يتعاقبون منذ قرن فى تغيير كل

شئ فارادوا تغيير المعبودات والأرض وسكانها وهم الى الآن ما نالوا الا يسيراً من طبائع الأمم التى ثبتها الزمان فيها

ذلك لأن ادراك الفروق الثابتة بين المخلوقات وعلى الأخص أفراد النوع البشرى ليس مما يتفق مع مذهب الاشتراكيين فى هذا الزمان والعلم ليس بكافٍ وحده فى اقناع رسل مذهب جديد بأنهم فيهِ واهمون وأن استمساكهم بآرائهم ناشئ من كونهم يتتبعون خطوات من سبقهم فى البحث عن السعادة الدنيوية التى ما فتئ الانسان يرنو اليها منذ خلق الله الأرض ومن عليها . فهم يبحثون عما اختصت به بنات (أتيله وهيسبرياس) (١)

وما أحلام المساواة بأقل قيمة من الأوهام التى جرى الانسان خلفها قبل ذلك لولا أنها سترتطم بصخرة الفروق الطبيعية فى الناس

واذا أضفت الى هذه الفروق ما ينتاب المرء من الهرم ثم الفناء رأيت أن ذلك بعض ما ملئ به هذا الوجود من المظالم الطبيعية التى لا مناص للانسان من حكمها

---

(١) ثلاث بنات من هذن الابوين يذكر تاريخ الخرافات انه كان لهنّ بستان من شجر التفاح ثمره من الذهب الوهاج ويحرسه مارد جبار قتله « هرقل »

الباب الأوّل

طباع الشعوب النفسية

الفصل الأوّل

روح الشعوب

طريقة الطبيعيين فى تقسيم الانواع — تطبيق هذه الطريقة على الانسان — بيان العيب فى تقسيم الشعوب البشرية الجارى عليه العمل حتى الآن — أساس التقسيم النفسى — المثال الوسط فى الشعب — كيف يتوصل الى معرفته بالنظر والاستدلال — العوامل النفسية التى يتكون منها المثال الوسط فى الشعوب — تأثير الأجداد والأبوين — الطبائع النفسية العامة التى توجد فى كل فرد من أفراد الشعب الواحد — تأثير الاجيال الماضية العظيم على الاجيال الحاضرة — اسباب هذا التأثير على التحقيق — كيف انتشرت روح المجموع من العائلة الى القرية ومن القرية الى المدينة ومنها الى الاقليم — مزايا فكرة المدينة ومضارها — الاحوال التى يتعذر معها تكوين روح للمجموع — مثال ايطاليا — كيف ان الشعوب الطبيعية بادت وحلت محلها الشعوب التاريخية

يبنى الطبيعيون تقسيمهم أنواع الكائنات على صفات وخواص تظهر دائماً في النسل بصورة واحدة . ونحن نعلم الآن أن هذه الخواص تتحول شيئاً فشيئاً بما يطرأ على النسل من التغير غير المحسوس . لكن اذا نظرنا الى الزمن التاريخى وحده جاز لنا القول بأن الأنواع لا تتغير لأن ما عرف من ذلك الزمن قصير

وقد تمكن الطبيعيون بطريقتهم هذه من تقسيم الانسان الى أنواع يمتاز بعضها عن بعض تمام الامتياز مستدلين على ذلك ببعض الفروق الجسمية التامة الوضوح كلون البشرة وشكل الجمجمة وحجمها. وغلب على الظن أن الجنس البشرى مكون من أصول شتى . ويرى العلماء المحافظون على التقاليد الدينية أن هذه الأنواع هى القبائل والشعوب . ولقد أصاب بعضهم حيث قال إنه ان صحّ عند البعض أن الزنجى والقوقازى من فصيلة (القولماسيين) فان علماء التكوين يؤكدون بالاجماع أن هذين القسمين نوعان كبيران لا يجوز أن يكونا تولدا من زوجين اثنين ثم افترقا عن أصلهما شيئاً فشيئاً بمرور الزمن

على أن الخواص الجسمانيـة ولا سيما ما أمكن أن يقع منها تحت البحث الآن لا تسمح بتقسيم الجنس البشرى إلا الى أنواع عامة قاصرة جداً لأن الفروق لا تظهر الاَّ فى الشعوب المتباينة فى الخلقة تبايناً عظيماً كالبيض والزنوج والحمر مع أن من الأمم من تتشابه فى أجسامها وخلقتهـا وتختلف كثيراً فى مشاعرها وعملها فتختلف بذلك أيضاً فى مدنيتها ومعتقداتها وفنونها وليس من المسلم جمع الاسبانى والانكليزى والعربى فى نوع واحد لأن الفوارق العقلية الموجودة بينهم بادية لكل ناظر تقرأ مسطورة فى كل صفحة من تواريخهم

وبنى بعضهم تقسيم الأمم التى لا تظهر فيهـا الفروق الجسمانية على مميزات أخرى كاللغة والدين والجامعة السياسية الاَّ أن هذا التقسيم لا يحتمل البحث لظهور خطأه

لكن اذا أعجزتنا الخواص الجسمانية واللغات والأقليم والجامعة السياسية فى تقسيم البشر فان علم النفس يعيننا على الوصول الى غرضنا فى هذا الباب اذ يرشدنا الى وجود بعض الصفات الأدبية والعقلية التى تؤثر فى تطوّر الأمم مستورة خلف النظامات والفنون والمعتقدات والتقلبات السياسية والى

أن روح الشعب تتكون من مجموع تلك الصفات

لكل شعب مزاج عقلى ثابت بمقدار ثبوت الخواص الجسمانية . نعم لا جدال فى أنه يوجد بين المزاج العقلى وبين طبيعة المخ نسبة . غير أن العلم لم يبلغ من الارتقاء درجة تعرف بها حقيقة ذلك التركيب فلا يجوز لنا حينئذٍ ان نتخذه قاعدة لتقسيم الأنواع . على أن معرفة ذلك لن تؤثر فى بيان المزاج العقلى الناشىء عنه كما يدلنا النظر عليه

والصفات الأدبية والعقلية التى يتكون من مجموعها روح الأمة هى خلاصة ماضيها وميراث أجدادها وعلة حركتها التى تسير عليها . وقد يظهر ان تلك الصفات مختلفات اختلافاً كبيراً فى أفراد الأمة الواحدة الاَّ ان الاستقراء يؤيد أن أغلب أفراد تلك الأمة مشتركون فى صفات نفسية عامة وثابتة ثبات صفاتهم الجسمية التى يمتاز بها نوعهم عن نوع أفراد أمة أخرى . والصفات النفسية كالصفات الجسمانية تتجدد مع النسل تجدداً منتظماً مستمراً

ومن مجموع الصفات النفسية التى يشترك فيها أفراد كل أمة تتكوّن الصفة العامة التى يعبر عنها بخلق الأمة أو الخلق

الملى . وبعبارة أخرى يتكوّن المثال الوسط الذى يمكن اتخاذه عنواناً للأمة . فاذا أخذنا ألف انجليزى أو ألف فرنساوى أو ألف صينى حيثما وجدناهم شاهدنا بينهم اختلافاً كبيراً . لكن أفراد كل جماعة يشتركون مع بعضهم فى صفات عامة بمقتضى النسل الملى الخاص بهم . وشيوع ذلك فيهم يسهل تصوّر الرجل الفرنساوى أو الانجليزى أو الصينى فى عمومه كما يتصوّر الطبيعيون بواسطة الصفات الجسمانية الفرس أو الكلب مثلاً لأن الوصف الذى يصفون به هذه الحيوانات لا يندرج تحته الاَّ الفرس أو الكلب من حيث اشتراك فرد كل نوع مع غيره من أفراد ذلك النوع فى صفاته الجسمانيـة العامة فلا يشمل متفرقات كل نوع أو آحاده المختلفة

ويكفى أن تكون الأمة قديمة قدماً يجعلها ممتزجة المجموع ليسهل على كل ناظر تميز المثال الوسط من أفرادهـا . فاذا نزل الانسان ببلد فأول ما يستوقفه من أهلها الصفات السائدة عليهم جميعاً . والسبب فى ذلك كثرة توارد تلك الصفات على الزائر . وأما الفوارق الشخصية فانها تفوته لعدم تكرارها . وهذا هو السرّ فى أن الانسان يميز لساعته الانجليزى أو

التليانى أو الاسبانى . ويسهل عليه أن يضيف الى الواحد منهم صفات عامة أدبية وعقلية هى تلك الصفات الأولية التى قدمنا ذكرها . وذكر (الانجليزى) أو (الجاسكونى) أو (النورمندى) أو (الفلامندى) يقابل فى الذهن صورة خاصة من مثال معروف من قبل يسهل علينا وصفه وتعريفه . فاذا طبق هذا الوصف على فرد بذاته قد لا يكون جامعاً بل قد يكون غير صواب لكنه اذا طبق على المجموع كان منضبطاً تمام الانضباط . وطريقة بيان المثال الوسط فى أمة بذاتها تشبه فى كونها غير تنبهية تمام الشبه طريقة الطبيعيين فى تقسيم الأنواع

ولوحدة المزاج العقلى عند جمهور كل أمة أسباب بسيطة معروفة فى علم وظائف الأعضاء . فالواقع أن كل فرد ليس ثمرة والديه وحدهما بل هو أيضاً ثمرة أمته أعنى سلسلة أجداده . وقد أحصى أحد العلماء الاقتصاديين وهو موسيو (شيسّوان) أن الفرنساوى يحمل فى جسمه دم عشرين مليوناً على الأقل من معاصرى سنة ١٠٠٠ وذلك باعتبار أن فى كل قرن ثلاثة أجيال . وهو يقول أن جميع سكان كل ناحية أو أقليم يشتركون

حتماً فى أجدادهم فهم مخلوقون من طينة واحدة وعليهم كلهم طابع واحد . وهم على الدوام ينجذبون الى ذلك المثال الوسط أى الى تلك السلسلة الطويلة الثقيلة التى هم آخر حلقة من حلقاتها . فنحن أبناء آبائنا وشعبنا معاً وليس شعورنا وحده هو الذى يجعلنا نرى الوطن أماً ثانية بل الشعور والخواص الجسمية والوارثة معاً هى التى تولد فى نفوسنا تلك العاطفة

واذا أردنا ان نعبر عن العوامل التى يخضع الانسان لها فى حركته تعبيراً بسيطاً قلنا انها ثلاثة أنواع . أولها وأشدها تأثيراً عامل الأجداد . والثانى تأثير الوالدين . والثالث تأثير البيئة وقد ظن بعضهم أن هذا الاخير هو أشدها فعلاً وهو فى الحقيقة أضعفها . لأن البيئة وما يندرج تحتها من المؤثرات المادية والمعنوية التى تعمل فى الانسان مدة حياته وعلى الاخص فى زمن التربية لا تؤثر فيه الاَّ أثراً ضعيفاً . وانما يعظم أثرها اذا توالى بالتناسل زمناً طويلاً

وعلى ذلك فالرجل ابن أمته دائماً مهما كان عمله . ومجموع الأفكار والمشاعر التى يأتى بها أفراد كل أمة يوم يولدون هى روح تلك الأمة وهى خفية فى ماهيتها ولكنها ظاهرة ظهوراً

كلياً في آثارها لأنها هى الحاكمة فى الحقيقة على تطوُّر الأمة . مثَل الأمة كمثَل مجموع الخليات التى يتكوَّن منها الفرد الواحد . حياة تلك الخليات التى يخطئها العد قصيرة . وحيـاة الذات التى تتكوَّن منها اكثر دواماً . فلها حياتان حياة ذاتيـة هى الخاصة بكل خلية وحياة كلية هى حياة الفرد التى يتكوّن من مجموعها . كذلك للفرد فى الأمة حياة قصيرة هى حياته الذاتية وحياة طويلة هى حياة المجموع الذى يتألف منهُ ومن غيره . وهذه الأخيرة هى حيـاة الأمة التى ولدته والتى هو عامل من عوامل دوامها والتى هو على الدوام تابع لها

وعليهِ يجب اعتبار الأمة ذاتاً دائمـة مجردة عن الزمان وتلك الذات تتألف من أفرادها الأحياء الذين يشخصونها فى زمن معلوم ومن سلسلة الأموات الذين هم أجدادها . لذلك اذا أردنا أن ندرك معنى الأمة الحقيقى ينبغى أن نمتد بها فى الماضي وفي المستقبل معاً . وأشد الفريقين قوة هم الأموات لأنهم هم الأكثرون عـدداً وهم المؤثرون فى عالم الحركات اللاّتنبهية الذى يخضع لسلطانه العقـل والأخلاق فى جميع المظاهر . فالأمة مسيرة بتأثير أمواتها أكثر مما هى مسيرة

بتأثير احيائها. والأولون هم وحدهم الذين كوّنوها وهم الذين أوجدوا ما فى الأحياء من الأفكار والمشاعر قرناً بعد قرن واليهم ترجع أسباب حركة أهل العصر لأن هؤلاء لا يخضعون لمزاج أسلافهم المادى وحده بل هم متأثرون أيضاً بما كان لآبائهم من المشاعر والأفكار. والحاصل أن الأحياء هم موالى الأموات بلا جدال يشقون برذائلهم كما ينعمون بما كان لهم من الفضائل والمكرمات

ولا تحتاج الأمة فى تكوين مزاجها العقلى الى زمن طويل كالذى تحتاجه الأنواع الحيوانية فى تكوّنها. الا أن ما تحتاجه من ذلك ليس بالشئ القليل ودليله أن الأمة الفرنساوية لم تتمكن من توحيد مشاعرها وأفكارها وايجاد روح خاص بها الا بعد عشرة قرون كاملة [1] ومع ذلك لا يزال

---

(١) هذا الزمن وان كان طويلا بالنظر الى تاريخنا فهو قصير فى الواقع لانه لا يضم أكثر من ثلاثين جيلا والسبب فى أنه كان كافياً على قلته لتقرير بعض الصفات العامة فى الأمة هو ان العلة اذا دام فعلها ردها من الزمن فى معلول بذاته أنتجت بالسرعة نتائج كبيرة فقد أثبت علماء الحساب أنه اذا دام فعل المؤثر الواحد زاد تأثيره بنسبة زيادة المتوالية العددية (١ : ٢ : ٣ : ٤ : ٥ وهكذا) وتضاعف الاثر بنسبة المتوالية الهندسية (٢ : ٤ : ٨ : ١٦ وهكذا) فالعلل هى لوغارتمات المعلولات كما أن خانات الشطرنج هى لوغارتمات عدد حبات البر فى مسألة تضعيف تلك الحبات بعدد خانات الرقعة وكذلك فى المبالغ ذات الربح المركب يعظم نمو المال بحيث يصير عدد السنين لوغارتم رأس المال المتجمد ويمثل

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

هذا التكوين ناقصاً جداً وربما كان أهم أثر ترتب على الثورة الفرنساوية تعجيل هذا التكوين باجهازها على الموانع الناتجة من تعدد الجنسيات الصغيرة فى قلب الأمة . اذ كان منا (البيكاردى) و (الفلامندى) و (البورجونيونى) و (الجاسكونى) و (البروتونى) و (البروفنسى) وغيرهم من الطوائف التى كانت تتقاسم البلاد الفرنساوية فى الزمن الماضى وكلها شعوب مختلفة لكل منها مشاعر وأفكار تميزه عن غيره فلم يكن من السهل جعل الوحدة تامة . وهذا هو السبب فى كثرة الخلف وقيام النزاع بيننا فى أغلب الاوقات مما لا تعرفه أمة ذات وحدة كاملة كالأمة الانجليزية . هناك امتزج السكسوني والنورمندي والبروتونى فكوّنوا عنصراً متشابهاً فترى كل شئ فى حياة الأمة متشابهاً وبسبب هذا الأمتزاج تمكنت عند القوم الأسس الثلاثة التى يتكوّن روح الأمة منها وهى : مشاعر عامة . ومنافع عامة . ومعتقدات

تلك الأسباب يمكن الدلالة على سير أغلب الحوادث الاجتماعية بمنحنيات هندسية تحكى ذلك التضعيف وقد توصلت فى موضع آخر الى بيان أن هذه المنحنيات يمكن تحليلها بواسطة عملية القطع المكافىء أو القطع الزائد ويرى موسيو شيسون أن ذلك يكون أسهل بواسطة العملية ذات الأس المتغير

عامة . ومتى بلغت أمة هذه الدرجة من الوحدة القومية اتحد جميع أفرادها بدون انتباه خاص على جميع مرافقها المهمة وانتفت من بينهم أسباب الخلف الكبير

وحدة المشاعر والأفكار والمعتقدات والمنافع الناشئة من كرور الدهور تقوى فى الأمة وحدة المزاج العقلى وتزيد فى ثباته وتحصّل للأمة سلطاناً كبيراً . بهذا بلغت روما أوج عظمتها فى غابر الزمان وبه ارتفعت انكلتره الى أعلى سلم مجدها فى هذه الأيام . ومتى زالت هذه الوحدة انفرط عقد الأمة وكذلك سقطت صولة الرومان يوم أضاعوها

كان لكل أمة فى كل زمان نصيب من تلك المشاعر والأفكار والتقاليد والمعتقدات الموروثة التى يتكون منها روح المجاميع البشرية الاَّ أن نموّها سار سيراً بطيئاً . وكان وجود الروح أولاً فى العائلة ثم انتشر منها فى القرية ثم فى المدينة ثم فى الأقليم ولم يعم جميع السكان الاَّ فى أزمان قريبة منا . هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا فى هذا العصر لأنها لا تصير واضحة الاَّ اذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترقَّ فكرة الوطن عند الإغريق الى أبعد من فكرة المدينة ودامت

مدائنهم فى حرب مستمر لأن كل واحدة منها كانت أجنبية فى الواقع عن البقية . كذلك لم تعرف الهند منذ ألفى عام غير وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الأجنبى تقوم فيها ممالكه بسهولة كما تدول بسهولة

فكرة المدينة كوطن خاص ضعيفة من حيث القوة الحربية ولكنها كانت دائماً شديدة الأثر فى ارتقاء الحضارة ومع كون روح المدينة أصغر من روح الوطن فهى أغزر مادة وأعظم ثمرة فلقد دلتنا آثينا فى الزمن القديم وفلورنس والبندقية فى الأزمان الوسطى على درجة الحضارة والرقى التى تصل اليها الجموع البشرية الصغيرة

ومتى طال الزمن على المدن الصغيرة والأقاليم الصغيرة وهى مستقلة عن بعضها تتولد فى كل منها روح ثابتة يتعذر معها غالباً مزج بعضها ببعض ليتكون فى مجموعها روح ملى واحد . واذا تيسر ذلك أحياناً بأن لم يكن هناك من الفوارق الكبيرة ما يحول دون تحقيقه فهو لا يتم فى أيام بل لا بدَّ له من قرون عدة . ولا بدَّ للقيام بمثل هذا العمل من أمثال (ريشليو) و (بسمارك) على أنهم لا قِبَل لهم به الاَّ اذا هيأته

الأيام . ولقد يتأتى لبلد مثل ايتاليا أن تصير فجأة دولة واحدة بتأثير العوامل الاستثنائية الاَّ أن من الخطأ الاعتقاد بأنها تنال بهذا روحاً مليًّا . وأنا لا أزال أرى فى ايطاليا هذا (البييمونتى) وذاك (الصقلى) وذلك (البندقى) و (الرومانى) وغيرهم ولكنى لا أرى (الايتالى)

كل أمة دخلت فى ميدان الحضارة وأصبحت ذات تاريخ قديم يجب اعتبارها أمة صناعية لا أمة طبيعية مهما كانت حالها أعنى سواء اتحدت عناصرها أم لا . اذ الأمم الطبيعية لا يكاد يكون لها وجود فى العصر الحاضر اللهمَّ الاَّ فى البلاد المتوحشة . هناك يتيسر العثور على أمم خالية من الخليط . وأما أكثر الأمم المتحضرة الآن فأمم تاريخية

وليس من موضوعنا أن نبحث فى أصل الأمم فسواء عندنا كوّنتها الطبيعة أو التاريخ . وانما الذى يهمنا منها هى الصفات التى حدثت لكل واحدة منها بمرور الزمان الطويل عليها واستقرّت عدة قرون فى أحوال واحدة وتجمدت بالتناسل جيلاً بعد جيل وأصبحت ثابتة ثباتاً كبيراً وصلحت لتميز كل أمة عن أختها

الفصل الثانى

حدود تغيير أخلاق الأمة

تغير خلق الامة هو القاعدة الظاهرة الثبات — سبب ذلك — ثبات الخلق الأصلى وتغير الخلق الثانوى — مقابلة الصفات النفسية بالصفات الحيوانية الثابتة والصفات المتغيرة — فى أن تأثير البيئة والحوادث والتربية قاصر على الصفات النفسية الثانوية — تطور الصفات — أمثلة لذلك فى أزمان مختلفة — رجال الهول الأكبر — ماذا كان يكون شأنهم فى زمن غير زمانهم — كيف أن الصفات القومية تبقى بعد الثورة — أمثلة مختلفة — الخلاصة

انعام النظر فى تطور حضارة الأمم هو الذى يدلنا على درجة ثبات مزاجها العقلى. وأول ما يخيل للباحث أن القاعدة العامة فى ذلك هى التغير لا الدوام. فمن لم يقرأ التاريخ بامعان يظهر له أن روح الأمة قابل فى بعض الأحيان لتغير عظيم سريع. والكافة يحسبون أن هناك فرقاً كبيراً بين صفات الانجليزى فى عهد (كرامويل) وصفاته فى العصر الحاضر وكذلك بين التليانى الحاضر ذى الحذر والحيلة وبين التليانى المندفع المفترس الذى يصفه (بينفينتو سلليني) وعندنا ما هو

أقرب من ذلك أريد فرنسا . فكم من تغير ظاهرى حدث فى صفاتنا منذ عدد قليل من القرون بل من السنين . وأى مؤرخ لم يشر الى الفرق الموجود بين خلق الأمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. كذلك يشاهد فرق عظيم في أيامنا بين وحوش (العهد)[1] وعبيد نابليون الطائعين وأولئك هم هؤلاء ولكن يخيل أنهم بدلوا بآخرين فى بضع سنين

ولكى نوضح أسباب هذه التقلبات ينبغى أن نذكر القراء بأن النوع النفسى يتركب كالنوع الجسمانى من صفات أساسية ثابتـة قليلة العدد وأن بجانب هذه الصفات صفات أخرى ثانوية متغيرة وقابلة للتحول . فالثور يتغير ظاهره بالعلف والزهر يتكيف بفعل البستانى حتى تغيب حقيقته عن غير ذى الخبرة والثور والزهر لا يزالان كما كانا من حيث صفات النوع الأساسيـة وانما كان التغير فى صفاته الثانوية . ولا تزال الصفات الأولى ميالة على الدوام الى الظهور فى كل نسل جديد بالرغم من جميع الحيل التى يعالج النوع بها

---

(١) يريد فريقاً من الفرنساويين أداروا الحكومة زمناً أيام الثورة وكانوا قساة

كذلك للمزاج العقلى صفات أساسية ثابتة كصفات الأنواع الجسمانيـة . وله أيضاً صفات ثانوية تتغير بالسهولة وهذه الأخيرة هى التى تتأثر بفعل البيئة والحوادث والتربية وغير ذلك من العوامل

ولا يغيبن عنا أمر مهم فى هذا الموضوع ذلك أن للمزاج العقلى مقدورات وان شئت فقل قابليات أخلاقيـة لا تظهر فى كثير من الأوقات لعدم ملائمة الأحوال لظهورها . فاذا اصطلحت تلك الأحوال ظهر من خلالهـا شخصية جديدة فى الأمة لكنهـا عرضية لا تدوم الاَّ وقتاً محدوداً . لذلك شوهد فى أيام المحن الدينية والسياسية الكبرى أن الأمـة ظهرت بمظهر جديد يخيل للناظرين أنهُ ناشئ من تغير عظيم فى خلقهـا الملى كأن انقلاباً حصل فى أخلاقها وأفكارها وحركتها الاَّ انهُ تغير عرضى ما لبث أن زال . والذى خيل فى بادئ الأمر كان طارئاً كما يضطرب وجه البحيرة الهادئة من فعل العاصفة ولا يدوم هذا الاضطراب زمناً كبيراً

والقابليات التى ظهرت فى بعض الأزمان بفعل الحوادث

الاستثنائية هى التى مثّلت لنا الذين لعبوا دوراً مشهوداً فى الانقلابات السياسية والدينية كأنهم مخلوقون من طينة أخرى فكانوا فى نظرنا عمالقة ونحن أبناؤهم الفاسدون . وما كانوا الاَّ رجالاً مثلنا صادفتهم حوادث حركت فيهم تلك القابليات التى نشترك معهم فيها . مثال ذلك غيلان (العهد) الذين وقفوا فى وجه أوروبا المدججة . فقد بلغت منهم قساوة القلب الى أنهم كانوا يقدمون خصومهم الى المقصلة لأدنى خلف بينهم وهم فى الحقيقة أناس من أواسط الأمة الطيبين أولى السكينة مثلنا. ولولا الزمان لوجدناهم مطمئنين الى صناعتهم أو تجارتهم أو زراعتهم أو الحرفة التى كانوا فيها من قبل يعملون . لكن حوادث خارقة أثارت فى أمخاخهم بعض الخلايا التى كانت هادئة فى الزمن العادى فبرزوا فى تلك الصورة الهائلة التى يقصر السلف عن ادراكها ولو أن (روبسپير) وجد بعد مائة عام من زمنه لكان قاضياً من أتقى قضاة الصلح صديقاً لشماس قريته وكذلك (فوكيه تينفيل) كان يكون قاضياً للتحقيق يطارد الجناة ويشد الخناق على المجرمين بصرامة أكبر وقساوة أعظم مما كان عليه أقرانه و (سان جوست) كان يكون معلماً

ماهراً فى المدرسة ذا حرمة لدى الرؤساء فخوراً بنيشان المجمع العلمى الذى كان يحوزه لا محالة . وحتى لا يكون فى نفس القارىء شك من صحة هذه الفرضيات يكفى أن نلفته الى ما فعل نابليون بأولئك الوحوش الذين لم يمهلهم الزمان ليقتل بعضهم بعضاً فقد كان من أمرهم معه أن صار أغلبهم عمالاً فى أقلام كتاب المصالح ومحصلين وقضاة ومديرين لأن الأمواج التى هاجتها العاصفة التى أشرنا اليها كانت قد سكنت وعادت البحيرة المضطربة الى هدوها

لا تتغير صفات الأمة الأساسية حتى فى أشدّ أوقات الاضطراب والمحن التى تظهر فيها الأمة بمظهر التغير الكلى فى شخصيتها وغاية ما هناك أن تلك الصفات تبدو فى ثوب غير ثوبها الأول فاما أراد أهل الثورة أن يقضوا على طريقة الحكم السابق وضعوا للأمة نظاماً قبضت فيهِ السلطة العليا على جميع اختصاصات الحاكمين فكان روح نظامهم هذا متفقاً مع روح النظام الاستبدادى المبنى على الأثرة وجمع السلطة فى اليد العليا وهو الذى امتزج بروح فرنسا فى عهد ملوكها المطلقين مدى خمسة عشر قرناً

ما من ثورة قامت في البلاد اللاتينية الاَّ وظهر خلفها ذلك النظام العتيد وبعبارة أخرى ذلك الميل المتأصل العضال أريد ميل النفوس الى الخنوع لحاكم قادر . والسبب فى ذلك ثبات جذور ذلك الميـل فى النفوس حتى أصبح جزءًا من روح الأمة . ولولا هذا الروح لما ساد نابوليون ببهاء الفتوحات التى جرت على يده . ألا ترى أنه لما استعاض الجمهورية بسيطرته أخذت صفات الأمة الوراثية تظهر كل يوم بقوة أشدّ وكان لا بدّ من ذلك فلو لم يقم بالأمر حينئذٍ ذلك الضابط المدرب لقام بهِ واحد من الأفاقين . وبعد مضى خمسين عاماً قام وارث اسمه فما ظهر فى الناس حتى صبوا اليهِ أجمعين والتفّت حوله أمة تعبت من الحرية وتلهفت على الاسترقاق . اذن ليس شهر (بريمير) [١] هو الذى أقام صرح نابليون لكنهُ روح أمته التى أقبلت راكعة أمام قدميه الحديديتين [٢]

---

(١) اسم الشهر الذى حصل فيه الانقلاب

(٢) كتب (تاين) يقول « ما تحرك حركته الاولى حتى خر الفرنساويون ركعاً طائعين وأقاموا على ذلك كما يقيم المرء على حاله الفطرى فأما الأصاغر من جند وفلاحين فقـد أشبهوا الحيوان فى اخلاصه وأما الأكابر من أولى الرتب وأرباب الوظائف فانهم استذلوا ذلة البيزانطيين وما قاوم الجمهوريون أبداً بل انه اتخذ من بين صفوفهم أصلح الوسائل لتأييد سلطانه فكان له منهم الأعيان فى

والسبب فى أن أثر البيئة فى الانسان يظهر عظيماً هو كون محله الصفات الثانوية الوقتية أوهى القابليات الأخلاقية التى سبقت الاشارة اليها . فالتغيير ليس جوهرياً بدليل أن أخلد الناس الى السكينة اذا عضه الجوع أصبح لا يبقى على شئ ولا يحجم أمام أية جريمة كانت بل ربما افترس مثيله ولا يقال مع ذلك أن طبعه الأصلى تبدل بطبع جديد

اذا نتج عن الحضارة فى الأمة أن صار أفرادها فى ثروة طائلة ومالوا الى اللذات والشهوات التى هى أثر من آثار الغنى وتولّد فى الآخرين حاجات كبيرة من دون أن يكون لهم من الوسائل ما يسدونها به . اذا تم ذلك استاء الناس وتولاهم الحرج وتأثرت حركة الأمة وحدثت انقلابات من صنوف شتى لكن صفات الأمة الأساسية تبقى بادية وسط هذا الاستياء وتلك الانقلابات . بدليل أن انجليز الولايات المتحدة أظهروا

مجالسهم والنواب فى ندوتهم ومستشارو الدولة وقضاة المحاكم والولاة من جميع الطبقات . أدرك من أول نظرة فى بقايا حريتهم ومساواتهم ما فيهم من الميل الى السلطة وحب الاستعلاء والتفوق حتى وهم مسودون وعرف جشعهم للمال وانطباعهم على اللذات سيان في ذلك العضو في جمعية سلامة الأمة والوزير والمدير وحكام الأخطاط فالكل رجل واحد في ثوبين ثوب فطرى وثوب مزركش »

فى حروبهم الأهلية ما امتازوا به من المثابرة وقوة العزيمة كما هم يظهرون ذلك الآن فى تخطيط المدن وانشاء المدارس الجامعة والمصانع الكبرى فالصفة لم تتغيَّر وانما الذى تغيَّر هو محل ظهورها

والخلاصة أننا اذا نظرنا الى جميع العوامل التى لها تأثير فى مزاج الأمة العقلى رأينا ذلك التأثير دائماً فى الجهة الثانوية منه وقلما يكون فى مميزاته الأساسية واذا أثر فيها فذلك لا يظهر الاَّ اذا دام المؤثر زمناً طويلاً . ولسنا نذهب الى أن صفات الأمم النفسية غير قابلة للتغيير . بل الذى نريد تقريره هو أن تلك الصفات على درجة كبيرة من الثبات وأن مثلها فى ذلك مثل الصفات الجسمانية وأن هذا الثبات هو العلة فى بطء تحول خلق الأمة فى بطون الليالى والأيام

الفصل الثالث

الطبقات النفسية للأمم

تقسيم الأمم النفسى كالتقسيم الطبيعى مبنى على بعض صفات أصلية ثابتة — فى بيان تقسيم الأمم النفسى — الأمم الأولى — الأمم الدنيا — الأمم الوسطى — الأمم العليا (الراقية) — العناصر النفسية التى بنى عليها هذا التقسيم — الخلق — الأدب — فى أن الصفات العقلية تتغير بالتربية — فى أن الصفات الأخلاقية ثابتة وهى العنصر غير القابل للتغير فى الأمة — شأن تلك الصفات فى التاريخ — السبب فى أن الأمم المختلفة لا تتفاهم ولا تتأثر الواحدة منها بالأخرى — السبب فى استحالة غرس حضارة أمة راقية فى أمة واطئة

اذا راجعنا فى أحد كتب التاريخ الطبيعى قواعد تقسيم الأنواع علمنا أن الصفات الثابتة أى الأساسية التى يبنى عليها ذلك التقسيم قليلة العدد جداً يكفى بعض أسطر لسردها . وسببه أن العلماء لا يعتمدون فى ذلك الاَّ على الصفات التى لا تتغير ولا يلتفتون الى الصفات الثانوية مهما كثرت وكانت منتزعة منها

كذلك الحال فى صفات الأمم النفسية فاذا بحثنا فى

التفاصيل وجدنا فروقاً كثيرة بين فرد وآخر وأمة وأمة . واذا رجعنا الى الصفات الأولية وحدها رأيناها قليلة . وسنأتى بأمثلة توضح كيف أن تلك الصفات القليلة هى التى تؤثر فى حياة الأمم

ولما كان بيان قواعد تقسيم الأمم النفسية متوقفاً على البحث فى الأحوال النفسية لكل أمة وذلك يقتضى وضع مؤلفات كثيرة فقد اقتصرنا هنا على بيان تلك القواعد بوجه عام

تنقسم الأمم من حيث صفاتها الأخلاقية العامة الى أربعة أقسام : الأمم الأولى — الأمم الدنيا — الأمم الوسطى — الأمم الراقية

والأمم الأولى هى التى لا أثر للتعليم عندها بل بقيت فى طورها القريب من الحيوانية وهو الطور الذى قطعه أجدادنا فى دورهم الحجرى القديم ويمثل لتلك الأمم فى هذه الأيام بأهل (فويجيان)[1] واستراليا

وبلى تلك الأمم الأمم الدنيا . وأخص مثال لها الزنوج وفيهم بصيص حضارة لكن ليس عندهم أكثر من بصيص

(١) احدى جزر الرأس الأخضر بالمحيط الاطلانطيق وسكانها ١١,٠٠٠ نسمة

وتاريخهم يدل على أنهم لم يتمكنوا من الارتقاء الى أكثر من حضارة بربرية وان ورثوا فى بعض الأحوال عن غيرهم حضارة أرقى كما وقع لأهل (دومينيج)[١]

ثم الأمم الوسطى وهى الصين واليابان والمغول والأمم الساميَّة . وهذه الأمم بلغت من الحضارة درجة راقية لم يفتهم فيها غير الأمم الأوروبية الراقية . وأما الأمم الراقية فلا يندرج فيها الا الأمم الهندوسية الأوروبية فهى وحدها التى أظهرت مقدرة على الاختراعات فى الفنون والعلوم والصناعة سواء كان ذلك فى الزمن القديم زمن اليونان والرومان أو فى عصرنا هذا وهى التى أوصلت الحضارة الى درجة ارتقائها الحالى وهى التى اكتشفت البخار والكهرباء . وأقل هذه الأمم ارتقاءً كالهندوس على الأخص بلغت من الفنون وعلوم الأدب والفلسفة حداً لم تتمكن أمم المغول والصين ولا الأمم الساميَّة من اللحاق بهم فيه

تمتاز هذه الأقسام الأربعة عن بعضها بحيث لا يخطئ أحد فى تمييزها فان التباين العقلى بين بعضها والبعض الآخر

---

(١) جزيرة أخرى فى المحيط المذكور

واضح جلى . وانما الصعوبة تبدو عندما يراد تقسيم أمم كل قسم الى أنواع وفروع . فالانجليزى والاسبانى والروسى من الأمم الراقية ولكنا نعلم أن الفرق عظيم بين هؤلاء وهؤلاء

ومن أراد استجلاء هـذه الفروق ينبغى له أن يقرّر حقيقة خلق كل أمة على حدتهـا . وسنفعل ذلك فى أمتين على سبيل التمثيل لهذه النظرية ولبيان أهمية تأثيرها مكتفين فى ذلك ببيان حقيقة العناصر النفسية الرئيسية التى توصلنا الى التفرقة بين بعض الشعوب والبعض الآخر

مما يشاهد دائماً فى الأمم الأولى والدنيا عدم قدرتهـا على التعقل مع تفاوت فى ذلك . وأعنى بذلك قدرة الذهن على جمع الأفكار المتحصلة من المحسوسات السابقـة أو الألفاظ التى تدل عليها ومقابلتها بالأفكار المتحصلة من المحسوسات الحالية واستجلاء الفرق بين الحالين . ولسنا فى حاجة الى أن نذهب الى المتوحشين لنلتقى بتلك الأمم لأن الطبقـات النازلة عند الأمم الأوروبية نفسها شبيهة بالأمم الأولى شبهاً كاملاً . وسبب عدم القدرة على التعقل عند تلك الأمم سرعة التصديق وفقدان ملكة النقد فقداناً تاماً . بخلاف الانسان

الراقى فان ملكة جمع الافكار واستخلاص نتائجها قوية فيه وملكة النقد وتحرير المعقول نامية للغاية

كذلك نرى ملكة التنبه والتأمل ضعيفة جداً فى الأمم الدنيا وملكة التقليد نامية جداً. ومن عاداتهم استنتاج النتائج الباطلة العامة من الجزئيات وهم ضعاف فى النظر وفى استجلاء نتائج الاستقراء وأخلاقهم متقلبة وعدم تبصرهم عظيم وقاعدة عملهم ما يعرض لهم من الالهام وقت العمل فمثلهم مثل (عيسوى)[1] يبيعون عن طيب خاطر حقوق البكورة الآجلة بطبق من العدس العاجل. انما يخطو الانسان خطوة كبيرة فى سبيل رقيه متى تمكن من ردّ منفعة عاجلة لمنفعة آجلة وجعل لنفسه غرضاً ثم أقام فى طلبه

وعدم القدرة على تصوّر النتائج البعيدة المترتبة على الأعمال والميل الى الاسترشاد بالهام الساعة التى يوجد المرء فيها يقضيان عليه كما يقضيان على الأمة كلها بالبقاء فى حالة التأخر. وهما لا يخرجان من تلك الحال الاّ اذا تمكنا من الحكم على ميولهما

(١) هو من ولد اسحاق ولد سنة ١٨٣٦ قبل المسيح وكان أكبر اخوته ذهب للصيد ذات يوم فعضه الجوع فالتقى بأخيه وكان يحمل طبقاً من العدس فاشتراه منه مقابل تنازله له عن حقوق الأولوية التى له بمقتضى كونه بكر أبيه

وبعبارة ثانية اذا اكتسبا ارادة يتمكنان بها من امتلاك نفسيهما . هنالك تصل الأمة الى فهم معنى النظام وضرورة التضحية فى سبيل مطلب معروف والصعود على سلم الحضارة ولو أنى سئلت عن مقياس يقاس به مستوى كل أمة بالنسبة لغيرها منذ عرف التاريخ لأشرت الى درجة اقتدار كل أمة على حكم نزعاتها اللاَّتنبهية ولقلت ان الرومان في العصور الخالية والانكليز والأمريكان فى الزمن الحاضر هما الأمتان اللتان بلغت فيهما هذه المقدرة منتهاها وقد كان لها شأن كبير جداً فيما وصلا اليه من الارتقاء والعظمة

قلنا ان المزاج العقلى نتيجة مجموع العناصر النفسية التى قدمنا ذكرها ودرجة نمو ذلك المجموع وان ذلك المزاج هو الوسيلة فى تمييز الأفراد والأمم

ومن تلك العناصر النفسية ما هو راجع الى الخلق ومنها ما هو راجع الى الذكاء

فأما الأمم الراقية فتفترق عن غيرها فى الأمرين . ولكن الفارق الأساسى بين أنواع هذه الأمم الراقية هو الخلق . تلك نظرية ذات أهمية اجتماعية كبرى . لذلك وجب

أن نوفى القول فى بيانها

يتكوَّن الخلق من اجتماع بعض العناصر المخصوصة وامتزاجها ببعضها . وتلك العناصر هى التى جرى علماء النفس فى هذا العصر على تسميتها بالمشاعر . وأهمّ المشاعر فى تكوين الخلق المثابرة وقوة العزيمة والقدرة على حكم النفس وكلها ملكات راجعة الى الارادة . ونذكر أيضاً من تلك العوامل الأساسية الأَدب وان كان هو فينا خلاصة مشاعر مختلفة . ونريد بالأَدب ذلك الاحترام الوراثى للنواميس التى تقوم عليها حياة الأُمة فمعنى كون الأمة ذات أدب أن لها قواعد ثابتة تسير عليها وأنها لا تنفك عن مراعاة تلك القواعد . وهذه القواعد تتغير بتغير الأَزمان والأَمكنة . ومن ذلك يظهر أن الأَدب متغير وهو فى الواقع كذلك . وانما الذى يجب له هو أن تلزمهُ الأمة الواحدة فى الزمن المعين . والأَدب ابن الخلق فهو لا يثبت الاَّ اذا صار وراثياً أعنى غير تنبهىّ . وعظمة الأمة تابعة على وجه العموم لدرجة ارتقاء الأَدب فيها

وللصفات العقلية قابلية صغيرة للتغير بتأثير التربية . وأما الصفات الاخلاقية فيكاد أن لا يكون للتربية أثر فيها

واذا أثرت فنى ذوى الطباع الهينة أى الذين لا ارادة لهم فهم يميلون الى حيث يوجهون . ويكثر وجود هذه الطبائع الهينة فى الأفراد ولكنها قلما توجد في أمة بأكملها . واذا شوهدت فى أمة من الأمم فانما يكون ذلك فى أيام سقوطها

تنتقل الاكتشافات العقلية بالسهولة من أمة الى أخرى وأما آثار الخلق فلا تتعدى أمتها . لأنها العناصر الأساسية الثابتة التى يتميز بها المزاج العقلى فى كل أمة راقية . ومن هنا كانت الاكتشافات العقلية ملكاً شائعاً للانسان أنّى وجد . وأما آثار خلق كل أمة طيبة كانت أو رديئة فخاصة بالأمة التى هى فيها ومثَل الخلق مثَل الصخرة لا تؤثر فيها الأمواج على تعاقب الأيام الاَّ قليلاً في حافتها والخلق شبيه بالعنصر الثابت لكل نوع من أنواع الكائنات كمسبح الأسماك ومنقار الطير وسن الحيوان المفترس

خلق كل أمة هو علة تطوّرها في حياتها وهو الذى يقرّر مستقبلها وهو موجود على الدوام خلف العوامل التى فرضها الناس سبباً لأعمالهم فقالوا بالاتفاق وهو لا حول له ولا قوة وبالرحمة وهى أمر خيالى وبالمقدور المحقق وهكذا مما

اتخذته الأمم ناموساً في حياتها على حسب اختلاف المعتقدات

تأثير الخلق في حياة الأمم عظيم . وأما تأثير العقل فضعيف على تفاوت فيه . ولقد كان الرومان أيام سقوطهم ذوى عقول أرقى من عقول أجدادهم القاهرين ولكنهم سقطوا لأنهم فقدوا صفاتهم الأخلاقية فأضاعوا المثابرة والعزيمة والجلد الذى لا يعرف الوهن وفقدوا القدرة على التفانى في نصرة المطلب واحترام القوانين الى حد التقديس . وتلك الصفات هى التى كانت السبب في عظمة آبائهم الأولين

الخلق هو الذى يمكن ستين ألف انجليزى من إخضاع مائتين وخمسين مليوناً من الهنود وكثير من هؤلاء في مستوى واحد معهم من حيث العقل وبعضهم يفوقونهم جداً في الفنون الراقية وغور المباحث الفلسفية والخلق هو الذى جعلهم على رأس مملكة استعمارية هائلة لم يعرف التاريخ نظيراً لها حتى الآن

الخلق لا العقل هو الذى تقوم عليه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذى يجعل الأمم تحس

وتعمل وما كان كسب الأمم كثيراً من شحذ الأذهان والتعمق فى التفكير[١]

المزاج العقلى هو الذى يرشد الأمة الى تكوين فكرتها فى الوجود وفى الحياة وعلى حسب صورة ذلك عندها تختط لنفسها طريقاً تسير فيه وسنأتى فيما بعد بأمثلة تقرب ذلك الى الأذهان . كل انسان يتأثر بالأشياء الخارجة عنه تأثراً خاصاً به فيتولد فيه من ذلك شعور خاص وفكر خاص ويندفع

---

(١) السبب فى شدة ضعف أعمال علماء النفس الذين اتخذوا هذا العلم صناعة لهم وقلة آثارهم العملية هو على الأخص قصرهم مباحثهم على المسائل العقلية وانصرافهم عن البحث فى المسائل الاخلاقية وكأنى لا أعرف ممن أشار الى أهمية الخلق وكونه أصلا فى تكوين مزاج الأمم العقلى غير موسيو (بولهان) فى رسالة (الأخلاق) وموسيو (ريبو) فى وريقات جاءت لسوء الحظ قصيرة جداً . قال هذا العلامة الأستاذ بمدرسة فرنسا « انما الذكاء صورة ثانوية من صور تطور العقل والعنصر الأساسى هو الخلق ونتيجة الأول اذا نمى نمواً كبيراً أعدام الخلق غالباً فينبغى لبيان أحوال الأمم النفسية ومقارنتها ببعضها أن نديم البحث فى الخلق كما ذهبنا اليه هنا لان أهمية هذا العلم لا تخفى فهو مصدر تاريخ الأمم ومرشد سواسها ولولا أنه لا ينال فى المعامل الكيماوية ولا يوجد فى بطون الكتب وانما ينال بالأسفار الطويلة والوقوف على أحوال الامم لكان من العجب العجاب أن العلماء لم يشتغلوا بتدوينه الى اليوم بل ليس هناك ما يدلنا على قرب اشتغال مصنفى علم النفس به . فانهم يتركون الآن شيئاً فشيئاً ما عكفوا عليه من قبل ويقصرون ابحاثهم على مسائل تتعلق بعلمى التشريح والفسيولوجيه »

الى العمل على نحو خاص مخالفاً في هذا كله ما يجرى عليه غيره ممن يفترق عنه في مزاجه العقلى . وينتج من ذلك أن من افترقوا في أمزجتهم العقلية لا يتأتى لبعضهم أن يدرك كنه بعض . واختلاف الأخلاق هو علة استمرار التنافر بين الأمم ومن المتعذر استفادة شئ من التاريخ اذا لم يكن طالب الفائدة عالماً أن الأمم المختلفة لا تشترك مع بعضها في الشعور ولا في المعقول ولا في العمل وأنه لذلك لا يتأتى لبعضها أن يفهم بعضاً . نعم في لغات الأمم المختلفة ألفاظ متشابهات يظنونها مترادفات غير أن تلك الألفاظ على اشتراكها تحدث في نفس كل أمة مشاعر وأفكاراً ومعقولات غير ما تثيره من ذلك في الأخرى . ولا يعرف الانسان مقدار الفرق العظيم بين أفكار الأمم المختلفة الاَّ اذا طالت عشرته لقوم غير قومه حتى ولو لم يعرف منهم الاَّ من تكلم لغته وتربى تربيته . ويمكن الوقوف على ذلك أيضاً من غير اغتراب بالمقارنة بين الرجل المتحضر وبين المرأة المتحضرة ومعرفة الفرق العظيم بينهما من الجهة العقلية . فمهما ارتقت درجة المرأة في التعليم يرى الباحث أنهما قد يشتركان في المصالح ويتحدان في المشاعر

ولكنهما لا يتفقان مطلقاً في تسلسل المعقولات وقد يتحادثان قروناً ولا يتفقان لأن لكل واحد منهما مزاجاً يخالف مزاج الآخر مخالفة تامة فلا يتأثر بالأشياء الخارجة عنه كما يتأثر رفيقه . ولو لم يكن بينهما من الفروق الاَّ اختلاف معقوليهما لكفى بذلك مانعاً من الاتفاق

ذلك الفرق العظيم في المزاج العقلى هو الذى يوضح علة عدم نجاح الأمم الراقية في نقل حضارتها الى أمم أدنى منها

قال أصحاب نظرية سيادة العقل الصرف ان التعليم ينجح في هذا السبيل ولا يزال قولهم مرعياً لدى الكافة ولست أعرف لهؤلاء الفلاسفة مذهباً أسوأ تأثيراً من هذا الرأى ولا أشد ضرراً . نعم يجوز أن يحرز أحط الأفراد في سلم الانسانية جميع معلومات الأوروبى كلها بما قد يوجد فيه من قوة الحافظة التى اختص بها الأفراد الأدنون وليست هى من ميزات الرجال ومن المسلم أن نيل الزنجى أو اليابانى الشهادة الثانوية أو رتبة المحاماة أمر ميسور ولكنهُ لا ينال بذلك الاَّ طلاءً سطحياً لا تأثير له في مزاجه العقلى . وأما كيفيات التفكير والمعقولية وعلى الأخص أخلاق الغربيين فليس في قدرة

التعليم مهما كان أن يحصلها له لأنها لا تنال الاَّ بالوراثة . ولذلك الزنجى أو هذا اليابانى أن ينال جميع الشهادات الممكنة لكنه لن يرقى مطلقاً بذلك الى صف الأوروبى العادى . ففى عشر سنين يمكن تلقينه التعليم الذى يتلقاه انكليزى تام التهذيب ولكن ألف سنة قد لا تكفى لصيرورته انكليزياً حقيقياً أعنى رجلاً يعمل كما يعمل الانكليزى في جميع أطوار الحياة . وعليه اذا غيرت أمة بسهولة لغتها أو نظامها أو معتقداتها أو فنونها فانما يكون التغيير سحطياً ولا يكون جوهرياً الاَّ اذا تيسر لها أولاً تغيير روحها

الفصل الرابع

درجات الفروق بين الأفراد والأُمم

كلما ارتقت الأمة عظمت الفروق بين أفرادها والبعض الآخر — فى أن أفراد الأمم الدنيا متساوون فى القوة العاقلة — لاجل معرفة الفروق بين الأمم يجب ان تكون المقارنة بين طبقاتها العليا لا الوسطى — في أن تقدم الحضارة يزيد في الفروق التى بين الأفراد والتى بين الأمم — نتيجة هذا الفارق — في الأسباب النفسية التى تمنع اتساع هذا الفارق — في أن الفرق عظيم جداً بين أفراد الأمم الراقية من حيث القوة العاقلة وضعيف جداً من حيث الخلق — في أن الوارثة تميل دائماً بالأفراد الراقية الى المثال الوسط في الأمة — في المشاهدات التشريحية التى تؤيد تدرج الفروق النفسية بين الأمم وبين الأفراد وبين الأنواع (الذكر والانثى)

لا تمتاز الأمم الراقية عن الأمم الدنيا بالصفات النفسية والجسمانية وحدها بل تمتاز عنها ايضاً باختلاف العناصر التى تدخل فى تكوين كل أمة . فمستوى العقل يكاد يكون واحداً عند جميع أفراد الأمم الدنيا ذكوراً واناثاً وتشابههم في ذلك يعطى مجموعهم مسحة المساواة التامة التى يحلم بها الاشتراكيون في هذا الزمان . وأما عند الأمم الراقية فالقاعدة هى اختلاف

الأفراد وكذا النوع اختلافاً كبيراً

ومن أجل ذلك لا يصح قياس الفروق بين الأمم بطبقاتها الوسطى بل بالعليا ان وجدت . اذ الفرق ضعيف بين الطبقات الوسطى في أمم الصين والهند وأوروبا من حيث العقل وهو جسيم بين طبقاتها العليا

وكلما تقدمت الحضارة اتسعت دائرة الفروق بين الأمم وبين أفراد كل أمة وعلى الأخص أفراد الأمم الراقية . فثمرة المدنية والحضارة هى على الضد من آمالنا تزيد الفروق بين الناس من حيث العقل ولا تميل بهم الى المساواة أبداً

ومن أخص آثار المدنية ايجاد فرق بين بعض الأمم وبعضها وبين طبقات كل أمة راقية لما تضطرّ اليه كل واحدة من الأعمال العقلية كلما ارتقت حضارتها والمشاهد أن تلك الأعمال في ازدياد مستمر

أنظر الى تطوّر الصناعة تره يقضى على الطبقات النازلة في الأمم المتحضرة بالبقاء على عمل محدود جداً ليس فيه ما يزيد من قوتهم العاقلة بل هو يؤدى الى اضعافها . ولقد كان العامل منذ مائة عام أستاذاً ماهراً يقدر على صنع آلات الساعة

بأكملها مثلاً فأصبح اليوم آلة تحرك غيرها . ثم هو لا يعمل الأ في قطعة واحدة فتفنى حياته في خرق الخروق بعينها أو جلاء القطعة بذاتها أو ادارة الآلة الواحدة . وينتج من ذلك سرعة انطفاء القوة العاقلة فيه. وأما صاحب المصنع أو المهندس الذى يستصنع ذلك العامل فان أحوال المسابقة والاكتشافات تدفعه الى تحصيل المعلومات الكثيرة وتولد فيهِ من الهمة الذاتية وتنمى عنده من قوة الاستنباط أكثر مما كان يحتاجه منذ قرن من الزمان . ولما كان عقله يعمل على الدوام فانه يزداد على الدوام طبقاً لناموس وظائف الأعضاء

أشار (توكفيل) الى تدرج الفروق الذى نبحث فيه بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيهِ من الارتقاء مبلغها في الوقت الحاضر فقال « كلما توسع الناس في تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه »

تشبه الأمة الراقية في هذا العصر من حيث العقل هرماً له درج . الجموع النازلة كتلته العظمى والطبقات السامية

المدارك قسمه الأعلى [١] وفي الذروة ترى النبغاء من العلماء وأصحاب الاكتشافات وأساتذة الفنون والكتاب وهؤلاء طائفة صغيرة جداً بالنظر لمجموع الأمة ولكنهم هم الذين يقاس بهم مستوى البلاد العقلي في سلم المدنية . فما أصدق قول (سان سيمون) « اذا أضاعت فرنسا الخمسين الأول من علمائها ومثل ذلك من أهل فنها وصناعتها وزراعتها قطعت رأس الأمة وأصبحت جسماً بلا روح ولكنها اذا فقدت جميع موظفيها الرسميين فان تلك الحادثة تحزن الفرنساويين لطيب نفوسهم ولكنه لا ينجم في البلد لذلك من الضرر الا اليسير »

كلما ارتقت الحضارة زادت سرعة اتساع الفروق بين طبقات الأمة وربما بلغت تلك السرعة نسبة المتوالية الهندسية المعروفة في علم الحساب . ولولا أن الوراثة تحول دون تعاظمها

---

(١) قلت السامية المدارك ولم أضف المتعلمة لأن من الخطأ الذى جرت عليه الأمم اللاتينية خاصة الاعتقاد بوجود نسبة بين العلم والذكاء اذ يكفي في التعلم أن يكون المتعلم على جانب من القوة الحافظة ولكنه لا يستلزم شيئاً من صفات القوة العاقلة أو القوة التصورية أو الهمة الذاتية أو قوة الاستنباط . وكم يلتقي الانسان بمن جمع اليه من الشهادات شيئا كثيراً وهو ذو عقل صغير وكم يلتقي بغير متعلم يتوقد ذكاء وعليه فدرج هرمنا العليا تتألف من عناصر جميع الطبقات ففي جميع الحرف أفراد امتازوا بسمو المدارك ولكن الظاهر بحكم الوراثة أن عدد أولئك المتفوقين يكثر في الطبقات الراقية وان ذلك هو علة استعلاء الطبقات المذكورة

لوصل الفرق مع الزمن بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا الى مثل ما هو عليه بين الأبيض والأسود بل بين هذا وبين القرد

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة تعترض اتساع الهوة بين الفريقين بمقدار ما تؤدى اليه النظرية وحدها . أولها أن التمايز لايحصل في غير القوة العقلية الاَّ قليلاً فلا يتناول الخلق أو هو لا يتناوله الاَّ بضعف شديد . وقد علمنا أن الشأن الأول في حياة الأمة للخلق لا للعقل . ثانيها أن الجموع سائرة في هذا العصر الى القوة بما تنظم من شؤن نفسها والجموع تبغض المتفوقين على اختلاف أنواعهم بغضاً لا ينكره أحد . ومن المحتمل أنها اذا كمل نظامها تهدم كل قوة عقلية تعترضها كما أسقطت طائفة الاشراف منذ مائة عام . ومتى عمت سيادة الاشتراكية في أوروبا فلا أمل لها بالبقاء بعض الزمن الاَّ اذا أتت على كل من خصه الله بموهبة تميزه أقل تميز عن أدنى درجة من درجات الأواسط

هذان السببان عارضان لأنهما متولدان عن الحضارة والحضارة متغيرة بطبيعتها . وهناك سبب أهم منهما يحول

بين خيار النبغاء وبين سرعة افتراقهم عن بقية طبقات أمتهم من الجهة العقلية . وأهميته آتية من كونه طبيعياً غير قابل للتغير . وهو ناموس الوراثة القوى فانه يقضى بزوال من تتسع الهوة بينه وبين أواسط أمته أو بارجاعه الى ذلك الوسط . اذ المشاهدات القديمة التى دونها جميع العلماء المشتغلين بالوراثة تدل على أن نسل العائلات رفيعة المدارك ينتهى في الغالب بالفساد ثم بالزوال التام عاجلاً أو آجلاً . والعاجلة أرجح

وعليه يظهر أن سموّ الادراك في الرجل مقرون بفساد النسل . ولولا أن ذروة الهرم التى أشرنا اليها من قبل تتغذى على الدوام من العناصر التى دونها لانقرضت عن آخرها . ولو جمع النبغاء من كل طبقة وأسكنوا ناحية على حدة فتناسلوا لتولد منهم أمة مصابة بالفساد ولا تلبث أن تزول . وما أشبه كبراء المتفوقين في سموّ المدارك بالنباتات ذات الضخامة الفاحشة التي ينميها البستانى بحيله الصناعية اذا تركت وشأنها ماتت أو رجعت الى حدها الوسط الذى هو العنصر الأقوى لأنه جماع ما ورث عن الاجداد

والمتأمل في أحوال الأمم يرى أن أفراد كل واحدة

منها وان افترقوا كثيراً من جهة العقل يكادون لا يفترقون من جهة الخلق الذى هو الصخرة الثابتة رغم تقلب الأزمان كما بيّناه . لذلك ينبغى عند البحث في أحوال أمة أن ينظر اليها من جهتين . فهى لا قيمة لها من الجهة العقلية الا بالنبغاء وهم قليلو العدد واليهم يرجع رقىّ علومها وآدابها وفنونها. فقيمة الأمة تقاس بطبقاتها الوسطى دون غيرها لأن قوة الأمة تابعة لمستوى هذا الوسط . فيجوز أن تستغنى الأمم عن النبغاء في العقل ولكنها لا حياة لها الا بالخلق . وسنبرهن على ذلك قريباً

ينتج مما تقدم أن الفروق من جهة العقل في نموّ مستمرّ وأما الخلق فانه يدور دائماً حول المثال الوسط . وهو الذى يرتقى رويداً رويداً وفيه يشترك السواد الأعظم من أهل كل أمة . ويرى هذا الأس المتين ولا سيما عند الأمم الراقية مكسوًّا بطبقة لطيفة من المدارك السامية . وتلك الكسوة هى التى لها المقام الاول في تقدم الحضارة وارتقاء المدنية ولكنها لا أهمية لها من حيث التأثير في أصل الجنس . وكأنى بها كسوة من اللباس فما أشبه الأثنين في البلاء والتجدد.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
ARABIC

فطبقة النبغاء على الدوام في تحلل وعلى الدوام في تجدد . والذى يليها ويجددها هى الطبقة الوسطى التى لا تتغير الا قليلاً جداً لأن أقل تحول فيها يقتضى تجدد الوراثة قروناً طويلة

ولقد وصلنا منذ بضع سنين من طريق البحث التشريحى الى اثبات هذه الفروق التى ندلل عليها الآن من طريق البحث النفسى . ولما كان البحثان قد أديا الى نتيجة واحدة فسأورد للقارىء بعض نتائج البحث الأول وهى مؤيدة بما أجريته من قياس عدة آلاف من الجماجم القديمة والحديثة لأفراد من أمم مختلفة . واليك أهمها نقلاً عن كتابنا (أبحاث تشريحية ورياضية في اختلاف حجم المخ ونسبة ما بين ذلك وبين درجة العقل) المطبوع سنة ١٨٧٩ وهى رسالة قرظها المجمع العلمى وجمعية (الأنتروپولوچى) :

« توجد نسبة كبيرة بين حجم الجمجمة وعقل صاحبها »
« كما ثبت ذلك من المشاهدات المتكرّرة وان اختلفت »
« النسبة المذكورة في بعض الأفراد . ويتبين للباحث أن »
« الفارق بين الأمم الدنيا والأمم الراقية ليس هو زيادة »
« حجم جماجم أفراد الأولى اذ هذا الفرق يسير بل هو »

« وجود أمخاخ نامية نمواً كبيراً في أفراد الأولى وعدم هذا »
« النوع في أفراد الأمم الدنيا . وحينئذٍ فالتميز بين الأمم »
« يكون بآحادها لا بمجموعها . اذ الفرق الوسط في حجم »
« الجمجمة ليس كبيراً بين أفراد أمة وبين أفراد أخرى »
« ما عدا الأمم الدنيا »

« واذا قابلنا بين جماجم الأجناس البشرية في الحاضر »
« والماضى وجدنا أن الأمة التى تكثر الفروق بين جماجم »
« أفرادها من جهة الحجم هى الارقى في حضارتها . وأنه كلما »
« تقدمت الحضارة ازدادت فروق الجماجم. وينتج من ذلك »
« أن الحضارة لا تسير بالناس الى المساواة العقليـة بل الى »
« التفاوت بينهم في ذلك كثيراً . ولا توجد المساواة التشريحية »
« والتركيبية الا بين أفراد الأمم المنحطة . فالفرق يسير »
« جداً بين قوم من الهمج كلهم يعمل عمل أخيه . والفرق »
« عظيم جدًّا بين الزارع التى تحصر بضاعته من اللغة في »
« ثلثمائة كلمة وبين العالم الذى يعرف من ذلك مائة ألف »
« وما يقابلها من المعانى »

« وينبغى أن نشير هنا الى أن الفرق الذى تحدثه »

« المدنية بين الأفراد مشاهد أيضاً بين الجنسين . فالرجل »
« والمرأة متساويان على التقريب من جهة العقل عند الأمم »
« المنحطة وفى الطبقات النازلة من الأمم الراقية . ويظهر »
« ذلك الفرق وينمو كلما ارتقت الأمة في المدنية »

« ومن المشاهد أيضاً وجود فرق بين حجم جمجمة »
« الرجل وجمجمة المرأة تزداد سرعة نموّه بتقدم المدنية . »
« وذلك ثابت حتى من مقارنة جماجم من اتفقا في العمر »
« والقامة والوزن كما جربناه نحن . وهذه الفروق ضعيفة »
« جداً في الأمم المنحطة وكبيرة جداً في الأمم الراقية . »
« وقلما يزيد حجم جماجم النساء في الأمم الراقية عن حجم »
« جماجم نساء الأمم المنحطة. فبينا نشاهد أن متوسط حجم »
« جماجم الباريزيين في الصف الأول من النمو نرى متوسط »
« حجم جماجم الباريزيات مساوياً لأقلّ حجم وقع تحت »
« المشاهدة فهو يقرب من حجم جماجم الصينيات ولا »
« يزيد الايسيراً عن حجم جماجم نساء (كاليدونيا الجديدة) »

الفصل الخامس

تكوين الأمم التاريخية

كيف تكونت الأمم التاريخية — الأحوال التى تساعد على امتزاج شعوب مختلفة وتكوين أمة واحدة — تأثير عدد أفراد كل فريق من الفرق المجتمعة واختلاف أخلاقهم وبنيتهم وهكذا — نتيجة التوالد — علة انحطاط درجة المولدين — عدم ثبات الاخلاق النفسية المتحصلة من التوالد — كيف تثبت تلك الاخلاق — أزمنة التاريخ الحرجة — التوالد عامل قوى في تكوين الامم الجديدة وهو أيضاً عامل قوى في تحليل المدنية — أهمية نظام الطوائف — تأثير البيئات — في أنها لا تؤثر الا في الأمم الجديدة التى لا تزال في دور التكوين بعد ان يكون التوالد فكك عرى اخلاقها الموروثة — في أنه لا تأثير لها في الأمم القديمة — أمثلة شتى — في أن معظم الأمم التاريخية بأوروبا لا يزال في دور التكون — نتائج ذلك السياسية والاجتماعية — السبب في قرب انقضاء زمن تكون الأمم التاريخية

قدمنا أنه لم يبقَ بين الأمم المتحضرة شعوب حقيقية بالمعنى العلمى. وأن الموجود الآن هو أمم تاريخية تكوّنت اتفاقاً بتأثير الفتوحات والهجرة والسياسة وهكذا. فهى حينئذ مركبة من أشخاص مختلفى الجنس أصلاً.

والآن نبحث فى كيفية امتزاج الشعوب المختلفة وصيرورتها أمة تاريخية ذات أخلاق نفسية واحدة.

ونلاحظ أولاً أن بعض العناصر التى تجتمع اتفاقاً ببعضها لا تمتزج دائماً. فالشعوب الألمانية والهنكارية والسلافية وغيرها من التى تعيش تحت الدولة النمساوية ممتازة عن بعضها امتيازاً تاماً ولم تظهر فيها حتى الساعة ميلاً الى الامتزاج . وكذا الارلندى الخاضع لحكم انكلتره لا يزال حافظاً لكيانه . وأما الأمم المنحطة جداً كأصحاب الجلود الحمر (پوروچ) و (الأستراليين) و (التسمانيين) وغيرهم ففضلاً عن كونهم يمتزجون بالأمم الراقية فانهم يفنون فيها اذ دلت التجربة على أن كل أمة منحطة تزول باختلاطها مع أمة راقية لا محالة

ولامتزاج الشعوب بعضها ببعض وصيرورتها أمة جديدة متحدة اتحاداً تاماً ثلاثة شروط

الشرط الأول هو أن لا تكون الشعوب المتوالدة مختلفة العدد كثيراً . والثانى أن لا يكون الفرق فى أخلاقها كبيراً . والثالث أن تعيش زمناً طويلاً تحت تأثير عوامل بيئة واحدة

والشرط الأول أهم الثلاثة . فاذا نزح عدد قليل من

البيض وأقام بين الزنوج فنى فيهم ولم يترك من دمه أثراً فى نسله . وهكذا فنى الفاتحون الذين أقاموا فى أمم كثيرة العدد . وقد ترك اللاتينيون فى بلاد (الغلوا) والعرب فى مصر حضارتهم وفنونهم ولغتهم ولكنهم لم يتركوا دمهم

وللسبب الثانى أيضاً أهمية كبيرة . نعم يجوز أن يكون الفرق بين الشعبين المجتمعين كبيراً ومع ذلك يمتزج أحدهما بالآخر كالأبيض والأسود . غير أنه لا يتكوّن من المولدين الاَّ أمة منحطة انحطاطاً كبيراً بحيث لا تكون قادرة بحال على أن تخلق لنفسها حضارة أو تدوم على حضارة . ذلك لأن اختلاف المتوالدين يحلل خلق الفريقين ويفكك آدابهم فاذا ورث المولدون من البيض والزنوج مدنية راقية أضاعوها سريعاً كما وقع لأهل (سان دومينج) وأما بين الأمم الراقية فالتوالد عامل قوى من عوامل الارتقاء متى تقاربت بعضها من بعض فى الجنس كالانكليز والألمان بأمريكا أما اذا كان الفرق كبيراً فالتوالد يورث فساد النسل لا محالة

لذلك نرى جميع الأمم التى يكثر بين أهلها عدد المولدين من النوعين الأبيض والأسود محكوماً عليها باستقرار الفوضى

ألهمَّ الاَّ اذا تولت حكمها يد من حديد . ذلك هو مصير البرازيل من دون شك فليس فيها من البيض الاَّ الثلث . وقد أصاب (اغاسيز) الشهير بقوله « من زار البرازيل لا يسعه انكار التدهور الناجم عن التوالد فيها أكثر من غيرها . فهو يمحو فضائل البيض وفضائل السود وفضائل الهنود على السواء ويخلف نسلاً ضعيفاً جسماً وعقلاً بل لا يقدر الواصفون أن يصفوه »

توالد الأمم يغير مزاجها الجسمى ومزاجها العقلى معاً . وهو الوسيلة الوحيدة التى يمكن معها تغيير ماهية الخلق الأصلى فى الأمة لأنه لا يفل الوراثة الا الوراثة فاذا طال الأمد على التوالد تولد من فعله أمة جديدة ذات صفات جسمانية ونفسية جديدة

وتكون الأخلاق المتولدة على هذا النحو متقلبة ضعيفة فى مبدأها ولا تثبت الا بتقادم فعل الوراثة فيها . فأول أثر لتوالد أمتين هو ابادة روح كل منهما أعنى مجموع المشاعر والأفكار العامة التى هى سر قوة الشعوب وبدونها لا توجد أمة ولا وطن . وهذا الدور هو أشق الأدوار فى حياة الأمم

لأنه دور نشوء وتأسيس وقد اجتازته الأمم جمعاء فلا تكاد توجد أمة أوربية غير قائمة على أطلال أمم أخرى وهو مملوء بالانقسامات الداخلية والتقلبات المختلفة ولا ينقضى حتى تستقر الأخلاق النفسية الجديدة

ومما تقدم يتبين أن التوالد عامل أصلى فى تكوين الأمم الجديدة ومؤثر قوى فى تحليل الأمم القديمة . لذلك أصابت الأمم التى بلغت درجة عالية من الحضارة فى ابتعادها عن الاختلاط بالأجانب . ولولا التمسك بحبال العصبية لما أمكن للآريين على قلة عددهم لما أغاروا على الهند منذ ثلاثة آلاف عام أن يستبقوا شعبهم ولابتلعتهم تلك الأمم السوداء التى كانت تحيط بهم من كل جانب فى بطونها ولما قامت للحضارة قائمة فى شبه جزيرة الهند العظمى وتوالدوا بينهم وبين الهنود . ولو أن الانكليز تساهلوا فى العصر الحاضر لفرت دولة الهند الضخمة من أيديهم منذ زمن بعيد . والحاصل أنه يجوز أن تفقد الأمة شيئاً كثيراً من مشخصاتها وأن تنتابها محن كبرى ثم تسترد قوتها وتنهض ثانياً ولكنها لا تقوم من رقدتها اذا أضاعت روحها

ومتى مالت الحضارة الى الذبول وأصبحت فريسة المغيرين عليها من طريق الهدو والسلم أو من طريق العنف والقوة فى الأمة أخذ أثر التوالد يظهر وجعلت أخلاقها تحلل وتتركب فتتهدم الحضارة أولاً لتهدم روح الأمة ويخلو السبيل لقيام حضارة جديدة بعد تحلل الأخلاق النفسية القديمة وقيام أخلاق جديدة على أطلالها

واذا دخلت الأمة الجديدة فى دور التكوين بعد اجتيازها الأدوار المتقدم ذكرها ظهر أثر السبب الثالث الذى جاء ذكره فى أول هذا الفصل . أعنى أثر البيئات ضعيف جداً في الأمم القديمة وقوى جداً فى الأمم الجديدة . وعلة ذلك أنه متى خلى الطريق من الأخلاق النفسية القديمة بتأثير التوالد أصبح من السهل على البيئة أن تؤثر تأثيراً محسوساً فى تلك الأرض الخالية وبمرور العصور عليها تتولد أخلاق جديدة ثم تثبت نهائياً . واذ ذاك يقال ان أمة جديدة قد تكوّنت وهكذا تكوّنت أمتنا (فرنسا)

وعليهِ فتأثير البيئة يكون كبيراً أو صغيراً بحسب الأحوال سواء فى ذلك البيئة المكانية والأدبية . وهذا هو سبب

اختلاف آراء الباحثين فيه اختلافاً كلياً وقد قلنا أنه عظيم فى الأمة التى فى دور التكوين أما فى الأمة العريقة فى القدم بتكرار الوراثة فيكاد يكون معدوماً

أما دليلنا على ضعف أثر البيئة الأدبية فهو عدم تأثير حضارتنا الغربية فى الأمم الشرقية وان طال زمن الاختلاط بيننا وبينهم كما هو مشاهد فى الصينيين المتوطنين بالولايات المتحدة . وأما دليلنا على ضعف تأثير البيئة المكانية فهو صعوبة استيطان البلد الأجنبى . اذ من المشاهد أنه اذا نقل جنس من الأجناس انساناً كان أو حيواناً أو نباتاً من مسقطه الى بلد مختلفة عن بلده فنى ولم يتحول . وبرهانه أن عشرة أمم قد افتتحت مصر وكانت مصر مقبرة الجميع . وما استطاع فاتح أن يستقرّ فيها . جاءها اليونان والرومان ثم الفرس والعرب ثم الترك وغير هؤلاء وهؤلاء ولم يترك فيها واحد منهم أثراً من دمه . انما النموذج الذى يشاهد فيها هو ذلك الفلاح ذو السحنة الصادقة فى الدلالة على أنه سلالة أولئك الذين رقمهم مهرة الصناع المصريين على قبور الفراعنة وفى جدران قصورهم منذ سبعة آلاف من السنين

لا يزال معظم الأمم التاريخية بأروبا فى دور التكوين فينبغى للباحثين أن يقفوا على هذه الحقيقة ليفقهوا تاريخ هذه الأمم . وليس فى الغرب الآن أمة تم تكوينها وثبتت صفاتها الا الأمة الانكليزية حيث لم يبقَ من أثر للبروتونى ولا للسكسونى ولا للنورمندى بل عفت آثار الكل وأخلوا المكان لعنصر جديد متسق الأجزاء متناسب الصفات . أما فى فرنسا فلا يزال الفرق موجوداً بين (البروفنسى) وبين (الأوڤرنى) و (النورمندى) . على أنه اذا لم يتمّ تكوين المثال الفرنسوى الوسط الى الآن فان المثال الوسط لبعض الأقاليم قد وجد . لكن من الأسف أن هذه الأمثلة الوسطى لا تزال متفاوتة بعضها عن بعض فى الأفكار والأخلاق ولهذا كان من الصعب الاهتداء الى نظامات تلائم أحوالهم جميعاً . ولولا حصر السلطة حصراً قوياً لما اتحدوا فى بعض أحوالهم العقلية . والفوارق فى المزاج العقلى بين الفرنساويين بعضهم وبعض هى علة انقسامهم على كثير من المسائل المتعلقة بالمشاعر والمعتقدات كما أنها علة الانقلابات السياسية التى هى أثر من آثار ذلك الانقسام ولن يزول هذا وذاك الا بفعل الزمان

ولقد كان هذا أيضاً حال الأمم الأخرى التى جرتها الحوادث الى الاحتكاك بعضها ببعض فكانت الانشقاقات والاضطرابات فيها على قدر افتراقها فى المزاج العقلى . فاذا كان الخلف واسعاً استحال بقاء المختلفين تحت لوآء واحد وعز اخضاعهم جميعاً الى قانون بذاته . وتاريخ جميع الممالك العظيمة فى جميع الأزمان شاهد على ذلك . فانها دالت فى الغالب بزوال من شيدوها . وليس بين الأمم الحاضرة أمة تمكنت من اخضاع أمم مختلفة عنها كل الاختلاف الا الانكليز والهولنديون فى القارة الأسيوية . وهم انما نجحوا فى ذلك بعدم تعرضهم لعادات تلك الأمم وأخلاقها وشرائعها وبتركهم اياهم فى الواقع يحكمون أنفسهم بأنفسهم مكتفين من السيادة بسهم من الضرائب والعمل فى التجارة والقيام على تأييد السكينة وحفظ النظام

وما عدا هذه الاستثناآت النادرة يتعذر قيام الدول الضخمة التى تضم اليها أمماً مختلفة الا بالقوة . على أنها تكون أيضاً عرضة للزوال بوسائل القوة ولا يمكن أن تنشأ أمة ويثبت قدمها الا اذا تكونت على مهل بامتزاج العناصر التى

قلّت الفروق بينها وباستمرار توالدها ودوام حياتها تحت سماء واحدة وخضوعها لتأثير بيئة واحدة وانقيادها لمعتقدات واحدة ونظامات واحدة . اذا اجتمع ذلك لعناصر مختلفة أمكنها بعد مرور عدة قرون أن تصير أمة واحدة

وكلما تقادمت الدنيا في الوجود زادت الأمم ثباتاً ورسوخاً وقلّ تحوّلها بتأثير الامتزاج شيئاً فشيئاً وكلما بلغت الانسانية عقداً من العمر أثقلت كاهلها عوامل الوراثة وتعذر عليها التحوّل عن حالتها وعلى ذلك يمكن أن يقال ان دور تكوين الأمم التاريخية فى أوروبا أوشك أن ينقضى

الباب الثانى

ظهور أخلاق الأمم فى عناصر مدنيتها

الفصل الأوّل

فى أن عناصر المدنية فى كل أمة هى مظاهر روح الأمة فى الخارج

عناصر كل مدنية هى المظاهر الخارجية لروح أمتها — اختلاف أهمية هذه العناصر باختلاف الامم — قد يكون الشأن الاول للفنون أو الآداب أو النظامات أو غيرها من العناصر بحسب الأمم - التمثيل لذلك في الزمن القديم بالمصريين والاغريق والرومانيين - التمثيل بالفنون — مدلول الفنون — استحالة دلالة أحد عناصر المدنية وحده على درجة رقيها - العناصر التى توفر على الأمة أسباب تفوقها — قد تكون العناصر منحطة فلسفياً ولكنها ذات قيمة كبيرة من الوجهة الاجتماعية

عناصر كل مدنية من لغة ونظامات وأفكار ومعتقدات وفنون وآداب هى التى يجب اعتبارها مظاهر خارجية لروح من أوجدوها . الا أن أهمية هذه العناصر فى الدلالة على ذلك مختلفة باختلاف الشعوب والأزمان

وقلما يخلو كتاب من الكتب المؤلفة فى مبتكرات الفنون من تقرير أن هذه المبتكرات هى ترجمان فكر أمتها الأمين وأنها الدليل الصادق على مدنيتها

ولا شبهة فى أن الأمر كذلك فى الغالب الا أنها قاعدة ليست عامة بحال. وليس رقى الفنون فى الأمة مقترناً على الدوام برقى الأمة العقلى . فمن الأمم من تكون فنونها عنوان رقيها ومنها من تكون بالغة درجة رفيعة فى المدنية وليس للفنون عندها الا شأن صغير

ولو أنا اضطررنا الى وضع تاريخ لمدنية كل أمة باعتبار أحد تلك العناصر دون البقية لوجب أن نسند كل تاريخ الى عنصر خاص فتكون الفنون فى هذه والنظامات فى تلك والجندية فى الأخرى والتجارة عند الرابعة وهكذا . وذلك مبحث يجب أن نبدأ بتقريره لأنه يفيدنا فى بيان سبب تحول عناصر

المدنية تحولاً متفاوتاً بانتقالها من أمة الى أخرى

يشاهد الفرق فى نمو عناصر المدنية على الأخص عند المصريين والرومانيين فى الزمن القديم بل يشاهد عندها أيضاً اختلاف الرقى فى فروع العنصر الواحد

فأما المصريون فقد كانت صناعة الأدب عندهم منحطة وصناعة النقش ضعيفة وكان فن العمارة وصنع التماثيل من أعظم المبتكرات . ولايزال أهل هذا العصر معجبين بما شيد المصريون من المبانى . وقد تركوا لنا أيضاً من صناعة التماثيل طرفاً (كشيخ البلد) و(الكاتب) و(راحوتب) و(نفرتارى) وكثير غيرها مما يصح أن يتخذ مثالاً ينسج على منواله . ولم يصل الاغريق الى التفوق عليهم فيه الاَّ ردحاً من الزمن قصيراً

ونذكر بجانب المصريين قوم روما الذين لعبوا دوراً مهماً فى التاريخ ولم يعوزهم المعلمون والأمثلة التى يحتذونها فقد كانوا قريبى عهد بالمصريين والاغريق ومع ذلك لم يتوصلوا الى ايجاد فنون خاصة بهم . وهم أقل الأمم التى عرفها التاريخ ظهوراً فى منتوجات الفنون اذ كانو لا يعنون بها الا قليلاً ولا ينظرون اليها الا من جهة ما فيها من الربح فيعتبرونها من السلع التى

تباع فى الأسواق كالمعادن والعطريات والتوابل وغيرها مما يطلبونه لدى الأمم الأخرى . وقد بلغوا أوج سؤددهم وليس لهم فنون وطنية حتى أنهم بعد أن استقر ملكهم ووفرت أموالهم وارتقت ميولهم فى الزخرف وتأثرت بذلك مشاعرهم الفنية بعض التأثر ما برحوا يلتمسون من الاغريق أمثلة يصنعون على منوالها وصناعاً ينفذون ما يطلبون

واذا أردنا أن نسطر تاريخ فن العمارة أو الحفر عند الرومانيين وجدناه فصلاً من فصول تاريخ ذينك الفنين عند الاغريق

انحطت تلك الأمة الرومانية العظيمة فى باب الفنون ولكنها رفعت الى السماء راية ثلاثة من عناصر المدنية الأخرى فأجادت نظام الجندية حتى استلمت به قياد العالم بأسره وأحكمت النظامات السياسية والقضائية التى لا نزال نحتذيها حتى الآن وأحدثت فن أدب اتخذناه عنها قروناً طوالاً

بذلك نرى اختلاف نمو عناصر المدنية فى أمتين لا مشاحة فى أنهما بلغتا من الرقى درجة عليا ويتبين لنا وجه الخطأ فى الاقتصار لتقرير حقيقة الحضارة عند الأمم على عنصر واحد

من تلك العناصر كالفنون وحدها . لأنا رأينا عند المصريين فنوناً وصلت حد الاعجاز الا النقش وفن أدب فى مستو صغير جداً . ورأينا عند الرومانيين فنوناً ضئيلة لا شخصية فيها ولكنا عرفنا لها أدباً رائعاً ونظاماً سياسياً وعسكرياً من الطراز الأول

ولنا أن نذكر الاغريق وهم من الأمم التى تفوقت فى فروع شتى من عناصر المدنية . كان فن الأدب راقياً جداً فى زمن (هوميروس) بدليل أن أغانيه لاتزال معتبرة كالسلسبيل الذى تشبعت به شبيبة الجامعات الأوربا وية منذ قرون. وقد دل التنقيب عن عمارات الأزمان الغابرة على أنها كانت تقرب فى زمن ظهور تلك الأغانى من عمارات المتوحشين وأنها عبارة عن خليط مشوّه منقول مما شاد المصريون والأشوريون

وأظهر ما يشاهد الفرق فى نمو عناصر المدنية فى الأمم الهندية . فأما العمارات فقلما وجدت أمة فاقت الهند فيها وأما الفلسفة فقد بلغ بعد نظرهم فيها شأواً لم يبلغه عقل الاوروباويين الاّ منذ عهد قريب جداً وأما صناعة الأدب فلهم فيها مقاطيع وملح تعجب الكتاب وان لم يبلغوا فى ذلك الفن مبلغ الاغريق

والرومان . وكانوا متأخرين فى صناعة التماثيل عن الاغريق بمراحل ثم هم مجردون من العلوم والمعلومات التاريخية وملكة التحقيق مفقودة منهم الى حد لا وجود له عند أمة أخرى . فلم تكن علومهم الاَّ تخيلات صبيانية . وما كتبهم فى التاريخ الاَّ قصص سخيفة ليس فيها تاريخ حادثة واحدة وربما خلت من ذكر واقعة صحيحة . ولو اقتصر الباحث على النظر الى الفنون وحدها لما كفى ذلك فى بيان الدرجة التى كانت عليها حضارة هذه الأمة

وهناك أمثلة كثيرة غير ماتقدم للدلالة على مبحثنا هذا. فمن الأمم من لم تبلغ النهاية فى سلم الرقى وكان لها فى الفنون طابع خاص لا نرى فيه نسبة ظاهرة بينه وبين فنون الأمم التى تقدمته . ذلك شأن العرب ففى أقل من قرن بعد اغارتهم على الأمم الاغريقية الرومانية القديمة قلبوا صورة العمارات البيزنطية بعد أن جروا على مثالها حتى أصبح من المتعذر معرفة المصدر الذى انتزعوا فنهم منه لولا وجود سلسلة العمارات السابقة

ومن الأمم من ليس لها أدنى مقدرة فنية أو أدبية ولها

مع ذلك حضارة راقيـة كما وقع للفينيقيين الذين لم يعرف لهم تفوق الا فى التجارة . وهم الذين مدنوا الدنيا القديمة بما أوجدوا من الصلات بين جميع أطرافها . أما هم فلم ينتجوا شيئاً جديداً وينحصر تاريخهم فى ذكر ما كانت عليه تجارتهم

وهناك أمم انحطت لديها جميع عناصر المدنية الا الفنون كأمة (المغول) فان الآثار الضخمة التى أقاموها فى الهند يكاد لا يكون عليها شئ من المسحة الهندية . وقد بلغت من الرواء حداً جعل المدققين فى هذا الفن يرون بعضها أجمل ما شادت يد الانسان . ومع ذلك لايخطر على بال أحد أن يعد (المغول) فى مصاف الأمم الراقية

على أنا نشاهد عند أرقى الأمم حضارة أن الفنون لم تبلغ النهاية فى رقيها أيام زهو تلك الحضارة . فان أعظم مبانى المصريين والهنود هى أقدم ما بنوا . وقد تفتحت أكمام الفن المعروف باسم (الغوطى) بأوروبا فى القرون الوسطى حيث كانت أمم الغرب فى حالة تقرب من الهمجية . ولا تزال تلك الآثار عديمة النظير الى يومنا هذا

لذلك يتعذر الحكم على درجة حضارة الأمة بدرجة رقى

فنونها دون غيرها لأنها كما سبق لى القول ليست الاَّ أحد عناصر المدنية . ولم يثبت أن هذا العنصر هو أرقى العناصر كما أن ذلك غير ثابت أيضاً لصناعة الأدب . بل المشاهد غالباً أن المصنوعات الفنية هى أضعف العناصر عند طلائع الأمم المتحضرة كالرومان فى العصور الخالية والأمريكان فى هذا الزمان . والمشاهد غالباً أيضاً كما قدمنا أن الأمم أنتجت أنفس فنونها وأشهى أدبها وعلى الأخص الأولى منها أيام كانت فى شبه البربرية . بل يخيل لنا أن دور ازدهار الفنون والأدب فى أمة هو دور انبثاق طفوليتها أو شبيبتها لا دور تمام نموها . واذا التفتنا الى الدنيا الجديدة التى يلوح لنا نخرها وقد استهوتها المصالح المادية ورأينا شأن الفنون عندها يكاد يكون غير محسوس أمكننا أن نخبر عن اليوم الذى تنزل فيه الفنون الى درجة المظاهر الثانوية الدالة على المدنية ان لم تنزل الى الدرجة السفلى

وهناك أسباب كثيرة تمنع من أن يكون رقى الفنون ملازماً على الدوام لرقى غيره من عناصر المدنية فتكون برهاناً على الحالة التى وصلت اليها المدنية المذكورة . اذ المشاهد أنه

بمجرد وصول الفنون الى درجة معينة من الارتقاء أعنى متى ظهرت الطرف تأخذ الفنون فى الانحطاط غير تابعة فى ذلك حركة بقية العناصر الأخرى . ذلك ناموس عام غير خاص بأمة دون أخرى . أثره ظاهر فى مصر واليونان وفى أمم أوروبا على اختلافها . ويستمر هذا التطور نحو السقوط الى أن تحدث ثورة سياسية أو غارة أجنبيـة أو الى أن تعتنق الأمة ديناً جديداً وتعرض حادثة أخرى من الحوادث التى تتكيف الفنون بسببها . حصل ذلك فى القرون الوسطى فان الحروب الصليبية حببت الى أوربا معارف وأفكاراً جديدة ظهر طابعها فى الفنون حيث انتقلت مستحدثاتها من الطراز الرومانى الى الطراز (الغوطى) . وبعد ذلك ببضع قرون تجددت نهضة علوم الأدب الاغريقية الرومانية وانتقلت الفنون من الطراز (الغوطى) الى طراز (النهضة الجديدة) . وقس على ذلك تغير طراز الفنون الهندية فى الهند بسبب دخول العرب فى تلك الأقطار

ومما تجب ملاحظته أن الفنون من حيث دلالتها على بعض حاجات المدنية وكونها نتيجة بعض المشاعر المخصوصة

تتجدد وتتغير بحكم الضرورة . وقد تزول بالمرة تبعاً لتغير تلك الحاجات والمشاعر أو زوالها . ولا يترتب على ذلك أن تكون الحضارة نفسها فى ذبول . وهذا برهان جديد على فقدان التوازن بين الفنون وبين غيرها من عناصر المدنية. ألا ترى أن المدنية لم تبلغ من الرقى ما بلغته في هذا الزمان . وأن الفنون ما كانت في زمن من الأزمان أكثر تبذلاً وشيوعاً وأبعد مشخصاً لأممها منها الآن . وسببه تغير المعتقدات الدينية والحاجات والمشاعر التى كانت تجعل الفنون عنواناً على الحضارة أيام كانت هذه منحصرة فى داخل القصور والصوامع والبيع. فصار الفن بذلك أمراً ثانوياً وبضاعة زخرف لم يعد من الجائز أن يفنى فيها الوقت الكثير والمال الوفير . ولما لم يعد الفن من الحاجيات أصبح حتماً صناعياً وتقليداً على الغالب . فلا توجد الآن أمة لها فنون مليّة خاصة بها وكل أمة تنقل طراز العمارات والحفر نقلاً متقناً أو غير محكم عن الأمم التى تقدمتها

نعم لا ننكر أن تلك الصور المنقولة تدل على حاجات أو ميول عند الناقل . ولكن من المحقق أنها لا تدل على ما نحن عليه الآن من الأفكار والمشاعر . انى أنظر الى مصنوعات أهل

الفن عندنا فى الأزمان الوسطى على سذاجتها فأجد أنهم كانوا يرسمون القديسين أو المسيح أو الجنة أو النار مما كان له الشأن الأول فى ذاك الزمان واليه تتجه أغراض الحياة . ثم أنظر الى المصورين فى هذه الأيام وهم ليسوا من أهل ذلك الاعتقاد يكسون جدران المبانى بصور قديمة وشارات ترجع الى زمن طفولية البشر يحاولون بذلك التذكير بعصر مندثر فأشعر بأنهم يحدثون صور صناعيـة أو صورية لا ترجع الى حقيقة ولا فائدة منها لأهل هذا العصر ولا يعبأ بها أهل العصور القادمة

انما الفن الحقيقى هو الذى يدل دلالة صحيحة على زمنه الخاص حيث يصور الصانع ما يقع تحت حسه أو نظره لا أنه يقصر عمله على تقليد صور تترجم عن أفكار ومعتقدات لم تعد من أفكارنا ولا من معتقداتنا . ولا تعتبر الصور صحيحة فى وقتنا هذا الا اذا مثلت الأشياء التى تحيط بنا . وفن العمارة الصحيح الآن هو الذى يمثل لنا الدور ذات الطبقات الخمس وعيون الأنهار وقناطر الميـاه والسكك الحديدية هذا الفن مبناه المنفعة وهو الذى ينطبق على أفكارنا وحضارتنا ويمثل كل التمثيل عصرنا كما كانت الكنيسة التى من طراز (الغوط)

وقصر عهد الشرفاء يمثلان زمناً مخصوصاً . وستستوى تلك الدور الشبيهة بقصر التيه وتلك الكنيسة (الغوطية) في نظر مهندسي العصر الآتى لأنهما لن تكونا عنده الاَّ صفحتين من الكتب الحجرية التى يتركها كل زمان للذى بعده كما أنه سيلقى فى زوايا الأهمال ما يقلده صناع هذا الزمان

كل طراز يمثل خيال أهل زمانه . ولما كانت الأزمان متغيرة وكذا الشعوب على الدوام فمن المسلم ان الخيال يتغير بتغيرها . وتستوى الخيالات كلها فى نظر الفلسفة لانها ليست الاَّ علامات وقتية

وعليه فالفنون مظهر من مظاهر الأمة التى أوحت بها لا فرق بينها وبين غيرها من عناصر المدنية . ولكنا لا نرى فيها الميزان العدل لأفكار جميع الأمم على السواء

كان هذا التقرير لازماً فى موضوعنا لأن أهمية أحد عناصر الحضارة عند الأمة هى مقياس قدرة تلك الأمم على تغيير ذلك العنصر اذا نقلته اليها من أمة أخرى . فاذا كانت ذا باع طويل فى الفنون كان لا بد لكل فن نقلته اليها من الانطباع بطابعها الخاص . ولكنها لا تؤثر الا يسيراً فى العناصر

التى لا تمثل ملكتها . فلما نقل الرومان طراز عمارات الاغريق لم يحدثوا فيه تغييراً كبيراً لأن روح الأمة الرومانية ما كانت لتظهر فى الفنون بل كان اهتمامهم الأكبر بغيرها من عناصر المدنية

ومع ذلك فانه بعد قرون قليلة يتأثر الفن بعامل البيئة حتى يدل بالقهر عنه على روح الأمة ولو كانت كالأمة الرومانية ليس لها فن خاص وكانت محتاجة فيه الى جلب نماذجها وصناعها من أمة أخرى . كذلك نرى معابد روما القديمة وقصورها وأقواس نصرها ونقوشها البارزة مصنوعة بيد الاغريق أو تلامذة هؤلاء . ولكن مسحة هذه الآثار والأغراض التى أقيمت من أجلها وزخرفها وحتى مساحاتها لا تذكر الناظر اليها بخيال آثينا اللطيف بل هى تمثل القوة والسيطرة والمنعة الحربية التى كانت تقيم روما وتقعدها . ومن هنا يتبين أنه مهما كانت المادة التى استعملتها الأمة خارجة فى الأصل عن شخصيتها لا بد من أن تترك فيها أثراً ذاتياً لها يرشدنا الى شىء من مزاجها العقلى وفكرها النفسانى

وعلة ذلك أن للصانع الحقيق سواء كان معمارياً أو أديباً

أو شاعراً ملكة سحرية يمثل بها فى أعماله روح زمانه وأمته . فالصناع شديدو الانفعالات . مشاعرهم الهامية . يتعقلون بالصور ولا يبحثون الاَّ قليلاً . فهم بذلك فى بعض الأزمنة مرآة الجمعيات التى يعيشون فيها . ومحدثاتهم أصدق شاهد يمكن الاستشهاد به على مدنية أمتهم . والخطأ بعيد عليهم لأنهم يحدّثون عما شاهدوا كالببغاء . وهم شديدو التأثر بما يحيط بهم من المحسوسات فلا يضلون فى التعبير عن أفكار تلك المدنية ومشاعرها وحاجاتها واتجاهاتها . أما الحرية فلا يعرفونها وهذا هو السر فى قدرتهم . سجنوا عقيدتهم فى دائرة ضيقة من التقاليد والأفكار والمعتقدات التى تكوّن روح الأمة ومشاعرها الموروثة وكذا الأفكار والالهامات وكل ذلك شديد التأثير فيهم لأنه هو الحاكم على منابع الأفعال اللاتنبيهية حيث تختمر المحدثات التى يوجدونها . ولو أنا فقدنا هذه المصنوعات ولم يكن لدينا ما نعرف به العصور الماضية الاَّ القصص المستهجنة والتلفيقات المخترعة فى الكتب التاريخية لأُنبهم علينا ماضى الأمم كما غابت عنا حقيقة (اطلانطيد) التى غمرتها الأمواج كما ورد خبرها عن أفلاطون

والخلاصة أن مزية الفن الصحيح هى التعبير الصحيح عن حاجات الزمن الذى ولد فيه وأفصح الألسن على اختلافها لسان محدثات الفنون وأخصها العمارات فهى أصدق أنباء من الكتب وأقل تصنعاً من الديانات واللغات لأنها بنت الحاجات والمشاعر معاً . والمعمارى هو مشيد بيت الانسان وبيت أربابه . وفى المعابد وفى قلب العائلات اختمرت الأسباب الأولى التى كونت تاريخ البشر

يستنتج من كل ما تقدم أن جميع عناصر الحضارة هى مظهر روح الأمة التى أحدثتها . وان بعض هذه العناصر مما يتغير بتغير الأمم وفى الأمة الواحدة وعلى حسب الأزمان المختلفة أصدق فى الدلالة على تلك الروح من البعض الآخر

ولما كانت هذه العناصر متغيرة بحسب الأمم والأزمان فمن الواضح أنه لا يمكن اتخاذ واحد منها كمقياس عام لحضارة الجميع كما انه يستحيل أيضاً أن ترتب هذه العناصر بعضها فوق بعض لأن هذا الترتيب عرضة للتغيير قرناً بعد قرن تبعاً لتغير أهمية العناصر نفسها بحسب الأزمان كما تقدم

واذا حكمنا على عناصر المدنية من جهة الفائدة وحدها

قلنا ان أهمها هى التى تتمكن بها الأمة من استخدام من عداها أعنى النظامات العسكرية . وحينئذٍ يجب أن نضع الاغريق أهل الفنون الفلسفة والأدب دون أخلاط الرومانيين . وحكماء المصريين وعلماءهم دون الفرس القريبين من الوحشية . والهنديين دون المغول الذين يشبهون الفرس

والتاريخ لا يشتغل بهذه التقاسيم الدقيقة وأعظم شئ له المقام الأول عنده هو التفوق الحربى . ولكن قلما يكون ذلك مقترناً بالتفوق في عناصر المدنية الأخرى وعلى كل حال فان الأول لا يبقى على الثانى طويلاً لأن الأفضلية الحربيـة لا تبدأ مع الأسف فى الانحطاط لدى أمة الاَّ ويكون محكوماً على هذه الأمة بالسقوط . وما دالت الدول الراقية الاَّ أيام بلوغها ذروة المجد وأوج الحضارة فأخلت المكان الى البرابرة الذين هم أدنى منها بمراحل من حيث العقل الاَّ أنهم كانوا على شئ من قوة الخلق والمناعة الحربية وهما صفتان تنعدمان دائماً بكثرة الترفّه فى الحضارة

وعليه لا بد لنا من التسليم والحزن فى قلوبنا بأن العناصر المنحطة فى نظر الحكماء هى أهم العناصر من الجهة الاجتماعية .

واذا كانت نواميس العصر الآتى هى التى عرفناها عن العصر الخالى قلنا ان أشد الأحوال خطراً على الأمة وصولها الى أعلى درجات الرقى فى العقل والتهذيب . فالأمم تموت متى ضعفت صفات خلقها التى هى نسيج روحها . وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الأمة من الحضارة والذكاء

الفصل الثانى

كيف تتغير النظامات والديانات واللغات

ليس فى استطاعة الأمم راقية ودنيا ان تغير فجأة عناصر مدنيتها — معارضة ذلك بالأمم التى غيرت ديانتها ولغتها وفنونها — مثال اليابان — فى ان هذا التغير صورى — التغير الكلى فى البوذية ومذهب البراهمة والاسلام والنصرانية بحسب الشعوب التى دانت بها — التغير الذى يحدث فى النظامات واللغات بحسب الأمم التى تدخل عليها — فى أن الألفاظ المتقابلة فى اللغات المختلفة تعبر عن معان ومشاعر متفاوتة — استحالة ترجمة بعض اللغات الى بعض من أجل ذلك — السبب فى أن مدنية بعض الأمم تظهر فى كتب التاريخ متأثرة بتغير كبير — حد تأثير الحضارات بعضها فى بعض

بيّنا فى غير هذا المكان كيف ان الأمم الراقية لا تستطيع ان تخضع الأمم التى هى أدنى الى حضارتها . وأثبتنا أن اكبر العوامل التى تستخدمها أوروبا فى ذلك الغرض من تربية ونظامات ومعتقدات غير كافية بالمرة لاحداث هذا الانقلاب. وحاولنا ايضاح ان جميع عناصر المدنية صادرة عن مزاج عقلى خاص يتكون بالوراثة مدى الزمن الطويل . وأن من المستحيل

تغيرها الاَّ بتغير ذلك المزاج . وأن هذا من صنع العصور لا من عمل الفاتحين . وانه لابدَّ من قطع مراحل متتالية حتى تنتقل الأمة من درجة الانحطاط الى درجات الرقى كما كان ذلك حال الأمم المتبربرة التى حطمت الحضارة الاغريقية الرومانية . ومن يحاول أن يتخطى بالأمة تلك المراحل من باب التربية فانما يعمل على تخريب آدابها وتشويش قوتها العاقلة والسقوط بها الى مستوٍ أحط من الذى كانت بلغته من ذاتها قبل ذلك

والاستدلال الذى استعملناه فى جانب الأمم المنحطة يصدق أيضاً فى جانب الأمم الراقية . فاذا صحت النظريات التى شرحناها فى هذا الكتاب صح أن الأمم الراقية لا تستطيع أن تغير حضارتها دفعة واحدة . بل يلزمها أيضاً ان تنتقل فى ذلك مرحلة بعد أخرى وأن تقطع أدوار التحول دوراً دوراً . وقد يظهر أن أمماً راقية تركت ديناً بدين وبدلت نظاماً بنظام واختارت لغة دون لغة وفنوناً جديدة غير ما كان لآبائها من ذلك . ولكنها فى الواقع لم تصل الى هذا الانقلاب الاَّ بعد أن تكون حوَّرت ما اتخذته تحويراً كلياً على مهل وصقلته

حتى جعلته موافقاً لمزاجها العقلى

والظاهر أن التاريخ يناقض هذه النظرية فى كل صفحة من صفحاته . فكم نرى فيه أمماً غيرت عناصر مدنيتها واتخذت لها ديناً ونظامات ولغة غير التى كانت لها فمنها من تركت دين آبائها الأولين واعتنقت المسيحية أو البوذية أو الاسلام ومنها من حورت لغتها تحويراً كلياً ومنها من قلبت نظاماتها وفنونها رأساً على عقب . ويلوح أنه يكفى قيام بطل من الفاتحين أو المرسلين أو أن يأخذ الأمة شئ من الهوس ليحدث مثل ما تقدم من الانقلاب

غير أن التاريخ بروايته هذه الانقلابات لم يخرج عن القيام ببعض وظائفه أعنى خلق الخطأ وتأبيده لكن اذا دققنا النظر فى هذه التغييرات المدعاة رأينا أن الذى تغير فى الواقع انما هى أسماء الأشياء أما المسميات المختبئة تحت الألفاظ فحية ترزق وهى لا تتغير الاَّ ببطىء عظيم

وحتى نبين ذلك ونوضح أيضاً أن التغيير يختمر رويداً رويداً من وراء هذه التسميات ينبغى ان نستقرىء عناصر كل حضارة بذاتها فى أمم مختلفة. أعنى اننا نجدد وضع تاريخها .

وقد حاولت هذا العمل الشاق فى أجزاء عدة فلا يسعنى ان أعود اليه هنا ولذلك أجتزىء عن جميع العناصر بواحد منها وهو الفنون

سأفرد لبيان التغيرات التى تطرأ على الفنون فصلاً خاصاً وأريد قبل ذلك أن آتى هنا على طرف من التغيرات التى تلحق ببقية العناصر لأبين ان النظرية التى تصدق على أحدها تصدق أيضاً على البقيـة . وأنه كما أن فنون كل أمة تناسب مزاجها العقلى فالنسبة أيضاً موجودة بين ذلك المزاج وبين اللغة والنظامات والمعتقدات وهكذا . وانه بناءً على ذلك يتعذر تغيرها دفعة واحدة وانتقالها من أمة الى أخرى (١)

ولقد يذهب الظن الى أن هـذه النظرية مناقضة لما

---

(١) لن أذكر هنا مثال اليابان فقد كتبت عنه قبل الآن ولربما عدت اليه فى وقت آخر اذ يتعذر ان تضم بعض الصحائف مستفيض القول على مسألة طاش حكم عظماء السياسيين فيها وتبعهم فى خطأهم مع الأسف بعض قصار النظر من الفلاسفة لأن نفوذ الانتصارات الحربيـة ولو على همج متوحشين لا يزال عند بعض الأفهام دليلاً على مقدار مدنية الغالب مع أنه من السهل تدريب جماعة من الزنوج على النظام الحربى الأوروبى وتعليمهم كيف يستخدمون المدافع والمكاحل ولكن ذلك لا يغير من انحطاطهم العقلى ولا ما يتبع ذلك من المستلزمات . وطلاء المدنية الأوروبية الذى يغشى اليابان فى هذا العصر لا منزع له من مزاجها العقلى بحال ولكنه لباس حقير مستعار ستمزقه الثورات عما قريب

يشاهد فى الديانات لكن الواقع أن تاريخ المعتقدات هو الذى نجد فيه الأمثلة القاطعة على صحة نظريتنا والحجة الدامغة على أنه يستحيل على الأمة أن تغير عناصر مدنيتها جملة كما يستحيل كذلك على الانسان أن يبدل من قامته أو لونه

ليس من ينكر أن الديانات الكبرى كالبرهمية والبوذية والنصرانية والاسلام دخلت دفعة واحدة فى شعوب بجملتها فبدلتها بدينها الأصلى حتى خيّل أنها استبدلتها فجأة بما وجدت عليهِ آباءها وبالتأمل في ذلك يتبين أن الذى استبدلته الأمم على الأخص انما هو اسم دينها القديم لا الدين نفسه والدين الجديد هو الذى تغير حتى يتفق مع المعتقد القديم فلم يكن الجديد فى الحقيقة الا امتداد ذلك القديم

بل أن التغير الذى لحق بالأديان التى انتقلت من أمة الى أخرى وصل الى درجة لم يبقَ معهـا من الدين المعتنق حديثاً الا اسمه وصورته . وأوضح مثـال نجده فى البوذية فانها منذ انتقلت الى الصين ضاعت معالمها حتى ظنها العلماء فى أول الأمر ديناً مستقلاً . ولبثوا زمناً طويلاً حتى اهتدوا الى أنها البوذية حوّرتها الأمة التى اعتنقتها . وليست البوذية

الصينية هى البوذية الهندية أبداً . وهذه تخالف كل المخالفة بوذية (نيپال). وهذه ايضاً تبعد عن بوذية سيلان (سرنديب). فهى فى الهند مذهب من البرهمية التى سبقتها ولا تختلف عنها فى حقيقتها الا يسيراً . وهى فى الصين أحد المذاهب التى كانت سائدة فى تلك البلاد وبين الاثنين رابطة قوية

وحال البرهمية حال البوذية سواء بسواء فأهل الهند قبائل شتى وكان لا مندوحة من اختلاف شيعهم فى المعتقدات وان اتحد الدين عند الجميع . فجميع الذين يدينون بالبرهمية يعتقدون أن أهم آلهتهم (ڤيشنو) و (سيڤا) . وأن الكتاب المقدس هو (ڤيدا) . غير أن هذين الالهين لم يتركا الا اسميها كما أنه لم يبقَ من الكتاب المقدس الا رسمه . وقام بجانب الكل مذاهب لا يحصى عددها . تشعبت فيها المعتقدات تشعب القبائل والطوائف . فهناك مذاهب التوحيد . وتعدد الآلهة . وعبادة الحيوان والجماد ومجموع الكائنات . وعبادة الأجداد والشياطين . وهكذا . ولو رجعنا فى معرفة الديانة الهندية الى ما هو مسطور فى (الڤيدا) لما وقفنا على طرف يسير جداً من الآلهة والمعتقدات السائدة فى تلك الأقطار

المتنائية الأطراف . فاسم الكتاب المقدس محترم عند جميع البراهمة . أما الدين الذى جاء بهِ هذا الكتاب فلم يبقَ على وجه العموم شئ منه

وما شذ الاسلام نفسه عن هذه القاعدة على بساطة مذهب التوحيد الذى جاءَ به . فالفرق كبير بينه فى الفرس وبلاد العرب والهند ألا ترى ان تمكن عقيدة تعدد الآلهة عند الهنود سهل عليهم من جعل أكبر الديانات تشدداً فى الوحدانية شاملة لآلهة كثيرة. هنالك خمسون مليوناً من الهنود يرون أن محمداً والأولياء ليسوا الا آلهة أضافوهم الى ألف آله مما كانوا يعبدون . حتى أن الاسلام لم يتمكن من ايجاد المساواة بين جميع المسلمين فى الهند . مع أن المساواة كانت سبباً قوياً في انتشاره . فلا تزال الطوائف موجودة عندهم كما هى عند اخوانهم غير المسلمين . وفى بلاد الدكن وعند قبائل (دراقان) تغير الدين حتى أصبح لا يعرف أنه الاسلام ولا يكاد يفرق بينه وبين البرهمية بل أنه لا يفترق عنها الا باسم محمد وبالجامع ولكنهم ألهوا الرسول وعبدوه

على أنه لا داعى للرحيل الى الهند لنرى ما دخل على

الاسلام من التحوير الكلى بانتقاله من أمة الى أخرى . بل يكفى التأمل فى مسلمى الجزائر . هناك شعبان مختلفان العرب والبرابرة . والاثنان مسلمان . وفرق بين اسلام هؤلاء واسلام هؤلاء . البرابرة لا يعتقدون الا بزوجة واحدة ولا يعترفون بتعدد الزوجات الوارد فى القرآن . واسلامهم مشوه جداً بعبادة الأوثان التى ألفوها منذ العصور الخالية أيام سيادة قرطاجة

كذلك لم تنجُ الديانات فى أوروبا من التحوير بحسب اختلاف الأمم التى اعتنقتها . ففيها من حافظوا على لفظ القواعد التى وردت فى الكتب . ولكنها صيغ ذهبت كل أمة فى تفسيرها مذهباً يخالف مذهب غيرها. فبين الأوروبيين الذين يتسمون بالنصارى من هو وثنى صرف كسكان بريتانيا السفلى الذين يعبدون الاصنام . وكالأسبانيين الذين يعبدون آلهة من المخلوقات . وكالتليانيين الذين يؤلهون تماثيل العذراء فى القرى . واذا تعمقنا فى البحث وجدنا مذهب البروتستانت آتٍ من اختلاف أمتين متغايرتين فى تفسير كتاب واحد . أمم الشمال التى مالت الى البحث فى معتقدها بنفسها وتقرير

أمور حياتها . وأمم الجنوب الباقيـة على حالة من التأخر فى الاستقلال والنظر الفلسفى . وهذا أوضح مثال فى بحثنا

تبعد بنا الشقة اذا أردنا شرح هذه المشاهدات ومع ذلك فانا نمرّ مروراً على عنصرين آخرين من عناصر المدنيـة وهما النظامات واللغـات لكيلا نضطر الى الدخول فى تقريرات اصطلاحية تخرج عن دائرة هذا الكتاب

ما صح فى جانب الديانات صحيح فى جانب النظامات بمعنى أن هذه أيضاً تتحوّر اذا انتقلت من أمة الى أخرى . وانى لا أطيل القول وأكتفى بالفات القارىء ليرى بنفسه فى زمننا هذا كم تغير النظام الواحد بحسب الأمم التى أقرته مع اتحاد اسمه فيها كلها سواء كان اقراره بالقوة القاهرة أو من طريق الاقنـاع . وسأشرح ذلك فى فصل آخر عند الكلام على أقاليم أمريكا

النظامات ثمرة الحاجات . ومما لا شبهة فيـه أن ارادة جيل واحد لا يمكن أن تؤثر فيها . فلكل أمة ولكل دور من أدوار تطور هذه الأمة أحوال خاصة فى كينونتها ومشاعر وأفكار وآثار موروثة . وهذا كله يستلزم نظامات خاصة ولا

يحتمل غيرها . واسم الحكومة لا دخل له فى ذلك . وما من أمة استطاعت أن تقرر عندها من النظامات أحسنها بحسب ما ظهر لها . ولو أنها أقرتها اتفاقاً وهو ما لا يقع الاَّ نادراً جداً فانها لا تقدر على استبقائها . ولقد كانت الانقلابات والتغيرات النظامية التى تمر علينا منذ قرن كافية لاقناع رجال السياسة عندنا بهذه الحقيقة . بل انى أظن أنه لم يعد أحد يرى أن التغييرات الاجتماعية الهامة يسهل احداثها بمجرد إصدار الأوامر العالية بها اللهمَّ الاَّ ذوى العقول المعوجة من العامة والاَّ نفراً من قصار النظر المتعصبين . والحقيقة أنه لا شأن للنظامات ولا فائدة منها الاَّ من جهة كونها تقرر التحول الذى حصل فى الأخلاق وانقدح فى الأفكار فهى تابعة له لا متقدمة عليه . وليست النظامات هى التى تغير من أخلاق الناس وأفكارهم . وليست هى التى تجعل أمة متدينة أو قليلة الإيمان ولا هى التى تعلم الناس حكم أنفسهم بأنفسهم أو تجعلهم يطلبون على الدوام من الحكومة أن تضع فى أعناقهم سلاسل واغلالاً

وكما أجملت القول فى النظامات أجمله فى اللغات فأكتفى بالاشارة الى أن اللغة تتغير وان كانت مقررة بالكتابة متى

انتقلت من أمة الى أخرى . وهذا هو الذى يجعل فكرة ايجاد لغـة واحدة لجميع الأمم عملاً صبيانياً . نعم أخذت أمة (الغول) بعد قرنين من فتوح الرومان اللغة اللاتينية ولكنها حوَّرتها سريعاً بحسب حاجاتها وصبغتها بصبغة معقولها وما زالت بها حتى أخرجت منها اللغة الفرنساوية الحاضرة

يستحيل على شعوب مختلفة أن تستمر على لغة واحدة زمناً طويلاً . وقد تضطرّ الأمة بعامل الفتوحات أو ضرورة التجارة أن تستعمل لغة غير لغتها الأصلية . الاَّ انه لا يمر على ذلك بضعة أجيال حتى تتغير اللغـة الجديدة تغيراً كبيراً ويكون التغيير أكبر على قدر الخلف بين الأمة الناقلة وبين الأمة المنقول عنها

ومن المحقق أننا نجد على الدوام لغات مختلفة عند الأمم المختلفة ومن أول الأمثلة على ذلك بلاد الهند فشعوبها شتى ولاعجب بعد ذلك اذا رأينا العلماء يعدون لها مائتين وأربعين لساناً . والفرق بين بعض هذه اللغات وبين البعض الآخر أكبر من الفرق بين اللغة الاغريقية وبين اللغة الفرنساوية . وهناك أيضاً نحو ثلاثمائة عجمة . وأهم تلك اللغات أحدثها وهى

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

الهندستانية لأن عمرها لا يزيد على ثلاثمائة سنة . وهى مزيج من اللغتين الفارسية والعربية اللتين كان يتكلم بهما الفاتحون ومن الهندية التى كانت أكثر اللغات انتشاراً فى الأقاليم التى دخلوها. وقد نسى الغالب والمغلوب فى زمن يسير لغتهما الأولى واتخذا اللغة الجديدة لساناً عاماً موافقاً للشعب الجديد الذى تولد من اختلاط الفريقين كما تقدم

ولقد أكتفى هنا ببيان المسائل الأساسية وأقول اذا اختلفت الأمم اختلفت معانى الألفاظ وان كانت متقابلة كأنهُ لا ترادف فيها وتعذرت ترجمة احدى اللغتين الى الأخرى . يفهم ذلك مما هو مشاهد عند الأمة بذاتها فى اللغة الواحدة . فالكلمة يكون لها معنى فى زمن وبعد بضع قرون يصبح لها معنى آخر . والمعنى القديم هو الذى كان يجول بخاطر رجال العصر القديم ثم تغيرت مدلولات الألفاظ بتغير الأفكار والأخلاق والعادات وبقى الكلام حاصلاً بواسطة هذه الألفاظ البالية لتعسر استبدالها . ولكنهُ لم يعد من نسبة بين ما كانت تدل عليهِ وما صارت تدل عليهِ . واذا نظرنا الى الأمم القديمة جدًّا ممن عرفت عنها حضارة لا نسبة بينها وبين

حضارتنا شعرنا بأن ترجمة لغتهم الى لغتنا لا تنتج الا ألفاظاً مجردة عن معانيها الأولى أى أنها لا تنقل الى أذهاننا الأصوراً مخالفة كل المخالفة للتى كانت ترسمها فى أذهان القوم السابقين . وهذه النظرية أظهر ما تكون فى بلاد الهند فان الألفاظ عندهم لم تتقرر بطريقة ثابتة كما حصل ذلك عندنا وذلك بتقلب الأمم الهندية فى أفكارها ولأنهُ لا قرابة بين معقولها ومعقولنا ولهم كتب مثل (الڤيدا) يستحيل أن نترجمها وقد خابت مساعٍ كثيرة فى هذا السبيل (١)

ان من الصعب أن ندرك عذر أفكار من نعيش معهم اذا افترقوا عنا بالعمر والجنس والتربية . وأعز من ذلك منالاً ادراك أفكار أمة تقادم عهدها مهما بلغ منا العلم بل كلما استزدنا علماً زادنا اقتناعاً بعدم فائدة محاولة الوصول الى هذه الغاية

هذه الأمثلة على ايجازها كافية فى بيان أهمية التغييرات التى تحدثها الأمم فى عناصر المدنية المأخوذة عن غيرها . وقد

---

(١) ذكر أحد المتضلعين فى العلوم الهندية وهو موسيو (بارت) محاولات ترجمة (الفيدا) ثم قال ويستخلص من هذه الأبحاث العديدة وكثيراً ما تناقضت نتائجها أمر واحد هو قصورنا عن ترجمة هذه الكتب اذا أردنا بالترجمة معناها الصحيح

يخيل أن التغيير عظيم لأن الأسماء تبدل لساعتها ولكنهُ فى الحقيقة شىء يسير . ولا بد من تقلب الأجيال وتراكم أثر الوراثة حتى يظهر بوضوح تام أن العنصر المنقول يخالف العنصر الذى حل محله . وليس لهذه التغييرات مآخذ فى التاريخ لأنهُ لا يهتم فيهِ الاّ بالأشياء الظاهرة . واذا قرأنا فيهِ أن أمة اعتنقت ديناً غير دينها الأصلى فالذى نفهمهُ من ذلك هو الدّين على ما نعرفهُ منهُ حين نظرنا فيهِ . لا تلك المعتقدات التى انتحلتهـا تلك الأمة فى الواقع ونفس الأمر . ويجب لمن يريد التفريق بين الألفاظ والحقائق الواقعة أن يطيل النظر فى تلك التغييرات حتى يقف على كيفية سيرها ومقدار نموّها

وعلى ذلك نقول أن تاريخ المدنيـات يتألف من هذه الأدوار المتجددة شيئاً فشيئاً . واذا خيل لنا أنها فجائية وهامة فذلك لأنا نقطع النظر عن التقلبات المتوسطة بين المبـدأ والنهاية . ولأنا لا ننظر الاّ الى هذه الأخيرة

وحقيقة الأمر أن قدرة الأمة على تمثل عناصر المدنية محدودة حدًّا مهما بلغت من قوة العقل وعلو الملكات . فان خلايا الذهن لا تتمثل فى يوم ما لم يتكون الاَّ فى عدة قرون وما

لا يلائم الاَّ أمزجة تختلف عنها مشاعر وأخلاقاً . ولا يتأتى تمثل هذه الموروثات الاَّ بضم مثلها على مهل . وسنرى عند الكلام على تطوّر الفنون فى أذكى أمة وهى أمة الاغريق فى الزمن القديم أنها قطعت أدهاراً حتى خرجت عن نقل مصنوعات الأشوريين والمصريين نقلاً ممسوخاً ووصلت بالتدريج البطىء الى تحفها التى لا يزال الناس يعجبون بصنعها

ما كان لجميع الأمم التى تعاقبت فى التاريخ ما عدا بعض القديمة جدًّا كالمصريين والكلدانيين الاَّ أن تمثل فى الغالب عناصر المدنية التى سبقتها بعد ان تكون كل واحدة قد أدخلت عليها من التغيير ما يلائم مزاجها العقلى . ولولا ذلك لكان تقدم الحضارة بطيئاً جدًّا ولوجب أن تبتدئ كل أمة تاريخها على استقلال اذا لم تستفد من التى سبقتها . ألا ترى أن الحضارة التى أوجدها المصريون أو الكلدانيون منذ سبعة آلاف أو ثمانية آلاف سنة كانت موارد استقت منها الأمم التالية واحدة بعد أخرى . فالفنون الاغريقية تولدت من الفنون التى نشأت على ضفاف نهر الدجلة أو نهر النيل . ومن الطراز الاغريقى تولد الطراز الرومانى . وتأثر هذا بالمؤثرات

الشرقية فكان منهُ الطراز البيزنطى وطراز رومانيا والغوطى على التعاقب . وكلها مختلفات بحسب روح الأمم التى تولدت فيها وان كانت راجعة الى أصل واحد

وما قلناه فى الفنون يصدق على بقية عناصر المدنية من نظامات ولغات ومعتقدات . فاللغات الأوروباوية مشتقة من لغة كانت مستعملة في العصر الحالى فى سهول آسيا . وعلم حقوقنا ابن علم حقوق الرومان وهذا مقتبس مما تقدمه . والديانة الموسوية مشتقة مباشرة من ديانة الكلدان . ثم اختلطت بمعتقدات الآريين فأصبحت ذلك الدين الذي تدين به أوروبا منذ ألفى سنة على التقريب . كذلك علومنا ما كانت تصل الى شأنها الحاضر لولا ما فعلته الدهور الخالية فيها . فعظماء واضعى علم الفلك الحاضر مثل (كوپرنيك) و (كيپلر) و (نيوتن) يتصلون ببطليموس صاحب الكتب التى تداولت فى تعليم هذا العلم الى القرن الخامس عشر . ويتصل بطليموس من طريق مدرسة الاسكندرية بالمصريين والكلدان . هكذا ينهض من خلال ذلك النقص الفادح الذى نراه فى تاريخ حضارة الأمم تطور بطىء فى معارفنا نرجع فيه بين العصور

الماضية والأمم الخالية حتى نصل الى فجر الحضارات الأولى. والعلماء يحاولون الآن الرجوع بذلك أيضاً الى الزمان الذى لا تاريخ للإنسان فيه. ومع أن الأصل واحد فما أكثر التغييرات التى أدخلتها عليه الأمم نهوضاً وتأخراً طبقاً لمزاجها العقلى. وتاريخ الحضارة ليس الاَّ تاريخ هذه التقلبات

ومما تقدم يتضح أن العناصر الأولية التى تتكون منها مدنية أمة من الأمم خاصة بتلك الأمة. وأنها خلاصة معقولها وانها لا تحتمل الانتقال منها الى غيرها بدون تحوير كبير. وأن الذى يحجب هذا التحوير هى الضرورات اللغوية التى تجعلنا نعبر بألفاظ متساوية عن معانٍ مختلفة ثم الضرورات التاريخية التى تجعل القارئ لايرى من الحضارة الاَّ دورَيها الابتدائى والذى انتهت اليهِ دون الأدوار التى تجمع بينهما. وسنبين بأجلى وضوح فى الفصل الآتى المختص بتطوُّرات الفنون كيف يتعاقب التحوير على أهم عناصر المدنية بانتقالها من أمة الى أخرى

الفصل الثالث

كيف تتغير الفنون

تطبيق النظريات المتقدمة على تطور الفنون عند الأمم الشرقية — مصر — الأفكار الدينية التى ترجع اليها فنونها — ما صارت اليه هذه الفنون بانتقالها الى أمم أخرى مختلفة عن المصريين كالايتيوبيين والاغريق والفرس — انحطاط الفن الاغريقى في عصره الأول — بطء تطوره — انتقال الفن الاغريقى الى الفرس وتطوره عندهم وكذا فنون الأشوريين والمصريين — فى أن تغير الفنون راجع الى الأمة ذاتها لا الى المعتقد الدينى — التمثيل لذلك بالتغييرات الكلية التى طرأت على الفنون العربية بحسب اختلاف الأمم التى دانت بالاسلام — تطبيق هذه النظريات في البحث عن أصول فنون الهند وتقلباتها — في أن الهند والاغريق استقيا من مصدر واحد ولكن اختلاف الأمة جعل لكل منهما فناً لا نسبة بينه وبين فن الأخرى — تقلبات الفنون الكلية التى حصلت في الهند باختلاف الشعوب التى تقطن تلك البلاد رغم اتحاد المعتقدات الدينية

أوجزت القول في بيان النسبة بين مزاج الأمة العقلى وبين نظاماتها ومعتقداتها ولغتها والاَّ لزم لشرح ذلك شرحاً وافياً مؤلفات جمة

غير أن الشرح الوافى فى الفنون أسهل بكثير . أما

النظامات أو الدين فمقولة بالتشكيك وقابلة لتأويلات غامضة . والباحث فيها مضطرّ الى تلمس الوقائع المختلفة باختلاف الأزمان والمستورة فى طيات كتب ذهبت روحها . والى الاشتغال بالتدليل والنقد والتنقيب . هو لا يصل بعد ذلك الا الى نتائج غير مجمع عليها . وأما المصنوعات الفنية وأخصها المبانى الأثرية فانها محدودة حداً كاملاً . وتفسيرها سهل للغاية . فكتب الحجارة أجلى الكتب وضوحاً . وهى التي لا تكذب أبداً . وهذا هو السبب فى أنى جعلت لها شأناً هاماً فيما كتبت عن الحضارة الشرقية . ولقد كنت على الدوام فى أشدّ الحذر من الكتب الأدبية فانها تضل غالباً ولا تفيد الاّ قليلاً . وأما الآثار فقلما تضلّ من يستهدى بها . وهى تفيد دائماً . وهى أصدق حفيظ على فكر الأمم التي بادت . وإنا لنبكى من أولئك الاختصاصيين الذين عميت عقولهم فلا يبحثون فيها الاّ على النقوش . فلنبحث الآن فى كون الفنون عنوان مزاج الأمة العقلى . وكيف أنها تتغير بالانتقال من حضارة الى أخرى

وسأقصر بحثى على الفنون الشرقية . لأن الفنون الأوروبية

وان كانت لا تخرج عن النظريات ذاتها كما بيناه الاَّ أن بيان تطورها عند الأمم المختلفة يقتضى توسعاً لا يحتمله هذا الكتاب الصغير

ولنبدأ بفنون مصر لنعلم كيف تغيرت بانتقالها الى ثلاث أمم على التتابع وهى زنوج (ايتيوبيا) و (الاغريق) و (الفرس)

ليس من بين الحضارات التى أزهرت فى المسكونة كلها ما يتم التدليل عليهِ بالفنون كحضارة المصريين فانها ظهرت بوضوح وجلاء جعلاها خاصة بضفاف النيل بحيث تستعصى على الانتقال الى أمة أخرى من دون أن تتغير تغيراً كلياً

خرجت الفنون المصرية وأخصها الأبنية عن خيال خاص وضعته الأمة نصب أعينها مدى خمسين قرناً كاملة . فقد كانت مصر تحاول أن تجعل للانسان مقاماً خالداً بدل حياته الفانية . فخالفت من عداها . واحتقرت الحياة . وخطبت ودّ الوفاة . ولم تهتم بشئ اهتمامها بالموميا الصامتة الشاخصة مدى الدهر من ظلمات مقرها الى ذلك النقش الهيروغليفى بعينين مموهتين بالميناء وسط وجه ذهبي . فكأنها ترنو فى قبرها الفسيح وهى فيه كالقصر المشيد آمنة من عبث الزمان الى كل

ما حنت اليه أيام الحياة مما نقش على جدران السراديب التى لا نهاية لها . فالعمارات المصرية هي أولاً وبالذات مبانى أحزان ودين . الغرض منها أن تكون مقاماً للموميات والآلهة . لأجل ذلك نقبت السراديب . ورفعت المسلات . ونصبت العمد . وشيدت الاهرام . ومن أجل ذلك استوت تماثيل أبى الهول على عروشها الصخرية تعلوها سماء السماحة والجلال . وكل شيء فى هذه العمارات ضخم مكين . ذلك لأنها كانت تشاد لتبقى . ولو أن المصريين كانوا الأمة الوحيدة التى عرفناها من التاريخ القديم لقلنا أن الفنون أصدق مصدر لروح الأمة التى أوجدتها

ثم جاءت أمم مختلفة . منها المنحطة كالايتيوبيين . ومنها الراقية كالاغريق والفرس . وانتحلت عن المصريين وحدهم أو عنهم وعن الأشوريين فنونهم . فما الذى طرأ على هذى الفنون بين تلك الأمم ؟ اليك ما كان شأنها فى أحط تلك الأمم أعنى فى ايتيوبيا

من المعلوم أن الأمم السودانية انتهزت فرصة قيام الفوضى وحلول زمن الانحطاط فى مصر بعد أن خطت شوطاً

طويلاً فى تاريخها أعنى أيام العائلة الرابعة والعشرين فاستولى السودانيون على بعض ولاياتها . وأقاموا مملكة كانت عاصمتها أولاً مدينة (نباتة) . ثم انتقلت الى مدينة (مروى) . ودامت على استقلالها بضع قرون . وقد بهرتها حضارة المغلوب. فأخذت تنقل آثارها وفنونها . وبين أيدينا بعض ما أنتجته بهذا التقليد . ولكنهُ تقليد فطرى ممسوخ فى الغالب . لأن أولئك الزنوج كانوا برابرة محكوماً عليهم بمقتضى انحطاطهم العقلى بالبقاء فى الهمجية . وهم فى الواقع لم يخرجوا منها رغم حضارة المصريين التي دامت تعمل فيهم قروناً عدة . ولا يوجد فى التاريخ القديم ولا الحديث ما يدل على أن أمة من الزنوج ارتقت فى الحضارة الى درجة ما . وما وقعت بحكم الاتفاق حضارة راقية فى يد أمة زنجية الاَّ أسرع اليها الانحلال وسقطت الى درجة تعيسة من الانحطاط . كذا كان شأن الحضارة عند الايتيوبيين فى الزمن القديم . وكذا شأنها لدى أمة (الهايتي) فى العصر الحاضر

ثم جاءت أمة أخرى ولكنها بيضاء تقيم فى عرض آخر وهى أمة الاغريق ونقلت عن مصر وأشور نماذج فنها الأولى

فى مبدإ الأمر وكان نقلها نقلاً ممسوخاً . وكانت تلك النماذج تأتيها على يد الفينيقيين الذين كانت لهم طرق المواصلات البحرية الجامعة بين الشواطئ وعلى يد أمم آسيا الصغرى أصحاب السيادة على الطرق البرية بين نينوى وبابل

نعم ليس من ينكر أن الأمر انتهى باليونان فتفوقوا على أساتذتهم . ولكن أبحاث الأثريين فى عصرنا هذا دلت دلالة واضحة على شدة قصورهم فى مجهوداتهم الأولى . وأنه مرت بهم قرون حتى وصلوا الى ابراز تحف الفنون التي خلدت ذكرهم الى الأبد . وأن وصولهم الى هذه الغاية اقتضى سبعمائة عام حتى احتملوا هذا العبء وصار لهم فن اختصوا بهِ دون غيرهم من الأمم . وكان تقدمهم فى القرن الأخير أكثر من تقدمهم فى الزمن السابق كله . ذلك لأن أطول الأدوار التي تقطعها الأمم فى حضارتها هى الأولى لا الأخيرة

وأقدم آثار الاغريق الفنية كنوز (ميسين) فى القرن الثانى عشر قبل المسيح تدل على أنهم كانوا همجاً فى تقليدهم مصنوعات الشرقيين . فلم تزل عنها مسحتها الشرقية مدى ستة قرون . فتمثال (أپولون) فى (تينيا) وفى (اورخوميا)

يشبـه التماثيل المصرية شبهاً كلياً . الا أنهم من ذلك الحين اتسعت خطاهم . وما مضى قرن حتى برزت الى الوجود تماثيل (فيدياس) و (الپارتينون) . وهى محدثات فن خلص من مسحة أصله الشرقى وفاقه بعد أن نقل عنه دهراً مديداً

وكذلك كان الشأن فى فن العمارات وان كان بيان الأدوار التي قطعهـا أقل سهولة . لأنا نجهل ما كانت عليهِ القصور التي جاء ذكرها فى قصة (هوميروس) قبيل القرن التاسع قبل الميلاد . ولـكن الذى ذكره لنا عنها من جدران نحاسية وقم لامعة الألوان وحيوانات ذهبية وفضية أقيمت فى المداخل كالحراس كل هذا يذكرنا قصور الأشوريين المغطاة بصفائح النحاس والآجر المموّه تخفرها ثيران منحوتة فى الأحجار . ومع ذلك فإنا نعرف أن مثال أقدم العمد (الدُّورية) الذى يرجع الى القرن السابع قبل المسيح موجود فى الـكرنك وبنى حسن بالديار المصرية . وأن أغلب أجزاء العمد المسماة (يونية) مأخوذ من عمد كانت للأشوريين . كما نعلم أيضاً أن هذه الاستعارات كانت تضاف الى بعضها في أول الأمر ثم مزجت ثم حوّرت وخرج منها بعد ذلك

نوع من العمد مخالف جداً لأصله

ثم جاءت أمة مقرها فى الطرف الثانى من الدنيا القديمة وهى الفرس وتمثلت الفنون وحوَّرتها كما فعل الاغريق . ولكن التطور لم يبلغ غاية عندها . لأن الاجنبى فاجأها بالفتح فوقفت حركة حضارتها ولم يترك لها الزمان لايجاد فنونها الا قرنين اثنين لا سبعة قرون كما ترك للاغريق . فلم يظهر على وجه المسكونة الاَّ أمة واحدة أمكنها أن تبرز للوجود فناً خاصاً بها فى زمن قصير مثل هذا وهى الأمة العربية

يبدأ تاريخ الفرس مع (قورش) وخلفائه الذين استولوا قبل المسيح بخمسة قرون على بابل ومصر وهما الوسطان العظيمان اللذان كان مجد الحضارة يشرق منهما على الأمم الشرقية . واما الاغريق وهم الذين كان الزمان يخبىء لهم مثل ذلك الفتح فما كان لهم ذكر فى ذلك الحين . وصارت الدولة الفارسية قطب دائرة المدنية الى ثلاثة قرون قبل الميلاد أنزلها الاسكندر عن عرشها وحوَّل بذلك مركز المدنية في الدنيا . ولم يكن للفرس يوم استيلائهم على مصر وبابل فن خاص .

فنقلوا عنهما النماذج واستعاروهما الصناع . ولما لم تدم دولتهم أكثر من قرنين لم يسعهم الوقت لتغيير الفنون تغييراً جوهرياً . ولكنهم كانوا بدأو بتحويرها تحويراً كبيراً ابّان سقوطهم . ويستدل على هذه التغييرات بأطلال (فرسوپوليس) الباقية حتى الآن . هناك نشاهد الجمع بين فنّي مصر وأشور وبينهما شئ من فنون الاغريق . ونشاهد أيضاً آثاراً جديدة أخصها عمود تلك المدينة وتاجه ذو الرأسين . وذلك يدلنا على أن الفرس وهى أمة راقية كانت تبلغ درجة الاغريق ان لم يكن في اتقان الصناعة ففى استخلاص طراز خاص بها لو أمهلها الزمان . ودليلنا على ذلك أيضاً آثارهم بعد عشرة قرون . فقد قامت عائلة السلوقيين بعد عائلة الأخميديين الذين أجلاهم الاسكندر عن الملك ثم من بعدهم عائلة (الأرشيديين) وأخيراً عائلة (الساسانيين) الذين قهرهم العرب في القرن السابع بعد الميلاد . ففى عصرهم صار للفرس فن عمارات جديد . فاذا بنوا أثراً كان له مسحة خاصة لا يمتاز فيها مقتبسة من الفن العربى وفن (الأخميديين) القديم وشئ من فن (الأرشيديين) المنقول عن الفن الاغريقى . أبواب شاهقة تبلغ ذروة البناء .

ولبن مموهة . وقناطر (ستينيّة) وغير ذلك . وهذا الفن الجديد هو الذى نقلته أمة (المغول) الى الهند بعد ان حوّرته بحسب ما اقتضته طبيعتها

وفي الأمثلة المتقدمة بيان درجات التحوير التي تدخلها أمة على فنون أمة أخرى . وأنها مختلفة باختلاف طبيعة الأمتين وباختلاف الزمان الذى قطعته الأولى في ادخال ذلك التحوير

لذلك رأينا أن الفنون سقطت عند أهل ايتيوبيا مع مطاولة الزمان بسبب ضعف مقدرتهم العقلية . وأن الأمة الراقية التى وجدت من الزمان متسعاً كاليونان أمكنها أن تنتزع من الفن القديم فناً جديداً أو أن تتفوق فيه . وأن الأمة التى هى أقل رقياً كالفرس ولم يكن لديها الزمن الكافى أظهرت حذقاً فى تمثل فنون غيرها وبدأت في تحويرها

وعندنا غير هذه الأمثلة التي أخذناها في أزمان أغلبها بعيد عنا أمثلة أخرى أقرب عهداً ولها آثار لا تزال بيننا . وهى تبرهن على عظمة الانقلاب الذى تضطرّ الأمم لاحداثه في الفنون المنقولة اليها . وهذه الأمثلة آكد في الدلالة لأنها

مأخوذة عن أمم تدين بدين واحد وانما تختلف عن بعضها فى الجنس وهى الأمم الاسلامية

لما استولى العرب فى القرن السابع من الميلاد على القسم الأكبر من الدنيا القديمة الاغريقية الرومانية وأقاموا صرح تلك الدولة العظيمة التي امتدت على عجل من الأندلس الى قلب القارة الأسيوية مارة بشمال أفريقيا كله وجدوا أمامهم فن عمارة ذا شخصية كاملة وهو الفن البيزنطى فتمثلوه بادئ بدء فى مساجدهم سواءً كان ذلك فى الأندلس أو فى مصر أو الشام كما يشهد به الجامع العمرى فى دمشق وجامع عمرو فى القاهرة وغيرهما مما لا يزال قائماً حتى الآن . ولكن ذلك لم يدم طويلاً وما أسرع ما بدأ العرب فى تحوير العمارة بحسب البلدان من قرن الى آخر . وقد شرحنا سلسلة هذا التحوير فى كتابنا (مدنية العرب) وهو تحوير كلى للغاية بحيث أنه لا يوجد أدنى شبه بين أثر من آثار عصر الفتح الأول كجامع عمرو فى مصر سنة ٦٤٢ وبين أثر من آثار آخر عهد الدور العربى العظيم كجامع قايد باى بها أيضاً سنة ١٤٦٨ . وقد أوضحنا هناك بالشرح وبالصوَر أن بين الآثار اختلافاً كلياً فى البلاد التى

دانت للاسلام كاسبانيا وأفريقيا وسوريا والعجم والهند . حتى أنه يتعذر اطلاق اسم واحد عليها كما يسهل ذلك بالنظر للآثار الغوطية مثلاً . لأنها وان اختلفت بعض الاختلاف لا تخلو من المشابهة

ولا يمكن أن تكون هذه الاختلافات الكلية فى العمارات بالبلاد الاسلامية آتية من اختلاف المعتقدات اذ الدين فيها واحد . ولكنها راجعة الى اختلاف الشعوب وهذا الاختلاف يؤثر في تطوُّر الفنون تأثيراً جوهرياً كما هو شأنه في أحوال الأمم ذاتها

واذا صحت هذه النظرية لزمنا أن ننتظر من بلد تسكنها شعوب مختلفة الأجناس آثاراً متباينة كل التباين رغم اتحاد الدين ووحدة الدولة . وهذا هو الواقع كما يشاهد في الهند . ففى الهند يسهل الوقوف على أمثلة تؤيد ما قررناه في هذا الكتاب . ولذلك أرانى أعود اليها حيناً بعد حين

الهند كتاب تاريخى دونه كل الكتب حكمة وبياناً . فهو البلد الوحيد الذى ينتقل فيه زائره من زمن الى زمن بمجرد انتقاله من ناحية الى أخرى . وتتجلى أمامه أدوار الحياة

التى قطعتها الانسانية منذ نشأتها الى أن وصلت الى ذروة المدنية . هنالك أشكال التقلبات كلها : فللعصر الحجرى مشخصات : ولعصر البخار والكهرباء ممثلات . والحاصل أنه يتعذر على الباحث أن يشاهد أثر عوامل المدنية وسلسلة تطوراتها بأحسن ما يراه فى البلاد الهندية

كانت لدىَّ مسألة أحاول حلها منذ زمن بعيد هى معرفة أصل الفنون الهندية . فلما طبقت النظريات التى قررتها فى هذا الكتاب اهتديت الى ما كنت أرجو . ولما كان الموضوع غير مطروق الاَّ يسيراً وهو مما تنطبق عليه أفكارنا فى علم النفس المتعلق بالشعوب وجب أن نلخص منه ما تهم معرفته

لم يظهر للهند أثر فى الفنون الا بعد التاريخ بزمن طويل . فأقدم آثارها لا يبعد عن تاريخنا بأكثر من قرنين مثل عمد (آسوكا) ومعابد (كارلى) و (باهوتا) و (سنش) وغيرها . وأيام بنيت هذه الأثار كانت حضارة الأمم القديمة أعنى حضارة مصر والفرس وأشور أتمت دورتها وظللتها غياهب الاندثار . وقامت مدنية واحدة مقام كل المدنيات أعنى مدنية روما وأصبحت الدنيا لا تعرف الا سيداً هو روما

ولقد أمكن للهند أن تقتبس شيئاً كثيراً من تلك الأمم القديمة يوم أخذت تطفو متأخرة بين ظلال التاريخ . الاَّ أن العزلة التامة التى ساد على الأذهان أنها كانت تعيش فيها وذاتية مبانيها الغريبة التى لا قرابة بينها وبين جميع الآثار المتقدمة عليها جعلتا الباحثين يعتقدون زمناً طويلاً أنها لم تقتبس من ذلك شيئاً . أضف الى تلك الذاتية التى لا يجادل فيها أحد ما في الآثار الهندية الأولى من اتقان الصنع والتفوق في الابداع مما لم تزد فيه بعد ذلك . ولا بدَّ أن تكون هذه الآثار المنيفة مسبوقة بتجارب بعيدة الأمد . الاَّ ان الباحثين تعبوا ولم يعثروا على ما يصلون منه الى هذه التجارب السابقة وقد اكتشفت في العهد الأخير في بعض الأقاليم النائية المنعزلة بقايا تماثيل تظهر فيها آثار الفن الاغريقى فذهب العلماء المشتغلون بالهند الى أنها أخذت الفن عن الاغريق

لكن تطبيق النظريات التي شرحناها في هذا الكتاب وتدقيق النظر في الآثار التى لا تزال باقية حتي الآن حملنا على استنتاج نتيجة تخالف ما ذهب اليه أولئك العلماء . فنحن نرى أن الهند لم تأخذ عن الاغريق فنهم . وما كان في استطاعتها

ذلك وان اختلطت بعض الاختلاط عرضاً بحضارتهم . لأن الأمتين كانتا مختلفتين اختلافاً كلياً في الجنس والفكر والحذاقة الفنيـة الى درجة يستحيل معها أن تتأثر احداهما بالأخرى . والبحث في الآثار المنثورة في الهند يؤدى الى أنه لا نسبة بين الفنين . فبينا تشاهد آثارنا ملأى بما ينم عن فنون الاغريق لا يمكننا أن نرى شيئاً من ذلك في الآثار الهندية . بل ان البحث السطحى يرشدنا الى أن الأمتين مختلفتان كل الاختلاف بحيث لم يوجد في العالم أمتان افترقنا بل أقول تنافرتا كما تنافرت الهند والاغريق . وتزداد هذه المشاهدة وضوحاً كلما تقدمنا في البحث في آثار الهنـد وفي الأطوار النفسية للشعوب التي أقامتها . اذ يتبين أن روح الأمة الهندية روح خاصة بها ومستقلة عن غيرها استقلالاً يتعذر معه تأثرها بمؤثر خارجى بعيد عن معقولها . نعم يمكن قهرها من جانب هـذا المؤثر الأجنبي ولكنـه مهما طالت مـدته يبقى سطحياً وعرضياً . فكأنما بين شعوب الهند على اختلافها وبين بقية الأمم فروق تبلغ في ضخامتها تلك الفواصل الطبيعية الموجودة بين بلادهم وبين بلاد المسكونة الأخرى . الروح الهندية مستقلة استقلالاً

تاماً ومهما كان النموذج الذى تلجئهـا الضرورة الى تمثله فانه ينقلب حتماً فيصير شيئاً هنديا . حتى أنك لتجد تلك الروح الغريبة التى لا تلبث أن تقلب حقيقة الآثار بادية فى العمارة حيث يصعب اخفـاء الاستعارة . ومن الجائز حمل معمارى هندى على تقليد نصب أغريقية . الا أنه لا يلبث أن يقلبها فتراها من أول نظرة نصباً هندية بل لا تزال تشاهد هـذا التغير فى أيامنا مستمراً مع قوة النفوذ الأوروبى . فاذا أعطيت الى صانع هندى نموذجاً أوروبياً أياً كان ليصنع نظيره رأيته يحافظ على هيئة العامة ولكنه يبالغ فى صنع بعض أجزائه ويزيد فى زخرفه وهو يغيره ويبدله . وفى المدة الثانية أو الثالثة يكون قد جرده من كل مسحة أوروبية وجعله هندياً صرفاً

وأهم صفة يمتاز بها فن العمارة الهندى هى شدة الإكثار من الجزئيات والتعقيد فى التركيب على عكس الفن الاغريقى الممتاز بالبساطة من غير نقص . وتلك الصفة موجودة أيضاً فى صناعة الأدب عند الهنود وهـذا هو الذى يجعل الفنين متقاربين . وبالتأمل فى الفن الهندى يتبين الارتباط الشديد بين المصنوعات الخزفية وبين مزاج الأمة العقلى . وهى أفصح

لساناً لمن عرف كيف يستنقطها . ولو فرضنا أن الهنود انقرضوا كما انقرض الاشوريون لدلتنا النقوش البارزة فى معابدهم وتماثيلهم ومبانيهم الأثرية على ماضيهم . ولعلمنا منها على الأخص أنهم لشدة خيالهم وفقدان ملكة النظام فيهم لم يتأثروا أقل تأثير بما برع الاغريق فيه من حسن الترتيب وشدة الوضوح . ولفهمنا أيضاً السبب فى أن أثر الاغريق فيهم لم يكن الاَّ عرضياً لا يتعدى المحل الذى أخذه عندهم فى مبدإ انتقاله . وقد توصلنا بالتأمل فى آثارهم الى أن نؤيد بالأدلة القاطعة صدق الحدس الذى يتحصل عند من لا يعرف الهند ومعقولها الا معرفة اجمالية . اذ ثبت من البحث الدقيق أن ملوك الهند كانوا على ارتباط مع ملوك الفرس (الارخيديين) . وكان أثر الاغريق بادياً فى حضارة الفرس . وأن ملوك الهند حاولوا مرات عديدة وعلى الأخص فى القرنين الأولين للميلاد ادخال الفنون الاغريقية عندهم ولكنهم لم يتمكنوا من استبقائها . بل ما لبثت أن اندثرت بزوال الملك من يد الذين نقلوها . وذلك للتنافر بين تلك الفنون وبين مزاج الأمة العقلى فلم تكن تقبله الاَّ بقاهر السلطان . بل أن التنافر بلغ حداً تعذر معه

أن تتأثر الفنون الأهلية بالفنون الاغريقيـة فى أيام أولئك الملوك أنفسهم . لأننا لا نجد فى آثارهم التى شيدوها فى ذلك العصر ولا في التى بعدها كالمعابد الموضوعة تحت الأرض أثراً للفن الاغريقى . وليس ذلك الأثر بالشىء الذى تتعسر مشاهدته. فترى المجموع هنـدياً صرفاً ولكن بعض الجزئيـات وعلى الأخص الفرُش تدل على أنها نسقت بيد صانع اغريقى

وكما ظهرت الفنون الاغريقية فجأة فى بلاد الهند اختفت منها فجأة لما بينها وبين ميول الأمة من التباين . وهذا يدل على أنها كانت مجلوبة اليها بقاهر الملك ولأن العادة فى اندثار الفنون عند الأمم ليست كذلك . بل الفن يتحور ويتحول ويبقى أثر الجديد مشاهداً فى القديم . أما الفن الاغريقى فانه جلب جملة الى الهند واندثر مرة واحدة وكان أثره فيها مفقوداً كأثر المبانى الأوروبية التى يقيمها الانجليز فى تلك البلاد منذ مائتى عام

وعدم تأثير الفنون الأوروبية فى الهنـد مع خضوعها لحكومة تامة السلطان منذ قرن شبيه بعدم تأثير الفن الاغريقى فيها قبل ذلك بألف وثمانمائة عام . فليس من ينكر حينئذٍ أن هناك تنافراً فى تصوُّر التنسيقات الفنية . بدليل

أن أقاليم الهند كلها قلدت فنون العرب وهم غرباء عنهم كالأوروبيين . حتى فى الأقاليم التى لم يصل أثر العرب اليها قد لا تجد معبداً ليس فيه شئ من زخرف العرب . نعم يوجد الآن كما وجد فى الأزمان البعيدة عنا أيام حكم الملك (كانشيكا) راجاوات منهم راجا (جڤاليور) خلبتهم عظمة القوة الأوروبية فشادوا لأنفسهم قصوراً أوروبيـة على الطراز الاغريقى اللاتينى . ولكن هذا الفن الرسمى بقى كما كان أيام (كانشيكا) بمعزل عن الفن الأهلى من دون أن يؤثر فيه

ويستنتج من ذلك أن الفن الاغريقى والفن الهنـدى عاشا معاً جنباً لجنب فى الماضى كما هو الحال فى الفن الأوروبى والفن الهندى فى الزمن الحاضر ولم يتأثر أحدهما بجانبته . فلا يوجد بين أثر واحد من آثار الهند الحقيقية وبين أثر اغريقى شبه فى المجموع أو فى الأجزاء ولو بعيداً جداً . ذلك أمر يستوقف المتأمل فى آثار الهند . ولا شك فى أن سببه التنافر بين روح الأمتين كما قدمنا لا عدم أهلية الهنود الفطرية في تمثل فن أجنبى . لأنهم تمثلوا وصوروا من الفنون ما وافق تلك الروح

دلتنا المشاهدات المعمارية التى جمعناها أن الهنود اقتبسوا الفنون في مبدإ الأمر من الفرس الذين ورثوا حضارة الأشوريين والمصريين لا الذين كانوا في عهد الملوك (الأرخيديين). ومن المعلوم أنه لما فرق الاسكندر شمل الملوك (الاخميديين) سنة ٣٣٠ قبل الميلاد كان للفرس حضارة زاهرة قبل ذلك بمائتى عام. نعم أنهم ما كانوا اهتدوا الى طراز جديد في الفنون ولكن مزج فنون مصر وأشور كان قد أخرج لهم صنعاً بديع المثال. ويستدل على ذلك بآثار (برسوپوليس) الباقية الى يومنا هذا حيث تشاهد المداخل المصرية الضخمة والثيران الأشورية ذات الأجنحة. وكذا بعض جزئيات من الفن الاغريقى. وكل هذا يحمل على القول بأن فنون الحضارة الكبرى فى ذلك الزمان اجتمعت فى تلك البقعة الأسيوية الصغرى

اذن أخذ الهنود الفن عن الفرس. ولكن الذى أخذوه هى فنون الكلدان ومصر لأن الفرس انما استعاروا تلك الفنون ولم يغيروها

والبحث فى آثار الهنود يرشد الى المصدر الذى استقوا

منـه في بادئ الأمر . ولذلك يجب لمن يريد الوقوف على هذه الاستعـارة أن يوجه نظره الى أقدم آثارهم لأن الروح الهندية ذاتيـة الى درجة لا تجعلهم يبقون زمناً طويلاً على طراز لم يكن لهم حتى يبدلوه ويصيروه مخالفاً للأصل مخالفة تامة

والسبب فى أن الهنـد قصرت عن الأخذ من فنون الاغريق وأخذت عن الفرس بسهولة كبيرة كون فنون هذه الأخيرة ملائمة لمزاجهم العقلى دون الأولى . لأن الآثار الاغريقية بسيطة الشكل قليلة الزخرف فلا تعجب الهنود بخلاف الآثار الفارسية ذات التراكيب الكثيرة والزخرف المبالغ فيه والزينة الفائقة فانها تبهر عقولهم وتأخذ من نفوسهم حتى أن تأثير الفنون الفارسية فى الهنود لم يكن قاصراً على الزمن السابق على تاريخ المسيح أيام كان الفرس وارثى حضارة مصر وأشور . بل ظهر أيضاً بعد ذلك بعدة قرون أيام ظهور الاسلام لأن المسلمين طرقوا بلاد الفرس قبل ظهورهم فى الهند وكانت حضارتهم أخـذت عن حضارة الأولين شيئاً كثيراً . فالفن الذى نقلوه الى الهند هو فن فارس على الأخص . وكانت آثار الأشوريين التى دامت فى أيام

(الأخمينيين) لا تزال بادية فيه مثل مداخل المساجد الهائلة ولا سيما الآجر المموهة التى كانت تصفح به وذلك من بقايا حضارة الكلدان والأشوريين . وقد تمثل الهنود هذه الفنون لأنها كانت توافق ميولهم وأما الفن الاغريقي القديم والفن الأوروبى فى هذا العصر فانهما يجافيان مشاعرهم وينابذان ميولهم . ومن أجل هذا لم يكن لهما فيهم من أثر

ثبت حينئذ أنه لا صلة بين الهند والاغريق من حيث الفنون كما يذهب علماء العمارة الى يومنا هذا . وانما ترجع صلتهم الى مصر وأشور من طريق الفرس فالهند ما اقتبست من الاغريق ولكن الأمتان استقتا من ينبوع واحد هو ذلك الكنز العام مصدر المدنيات كلها . وهو الذى جمعته على طول الدهور مصر واشور . استقي منه الاغريق على يد الفينيقيين وأهل آسيا الصغرى . واستقي منه الهنود على يد أهل فارس . فحضارة الاغريق وحضارة الهند فرعان من نهر واحد . الا أن كل فرع جرى مجرى خاصاً فاختلف عن أخيه كما اختلف روح الأمتين

ولما كانت الفنون مرتبطة بمزاج الأمة العقلى وكان الفن

الواحد يتغير لذلك باختلاف الأمم التى تستصنعه لزم أن تختلف الفنون عند الهنود باختلاف شعوبهم رغم الوحدة الدينية . والواقع كذلك كما تدل عليه آثار كل ناحية . والتباين شديد جداً بين تلك الفنون . حتى أننا لم نجد بداً من ترتيبها بحسب الأقاليم أعنى بحسب الشعوب لا بحسب المعتقدات السائدة فى أهلها . لا مشابهة بين آثار الشمال وآثار الجنوب مع كونها شيدت كلها فى عصر واحد بين قوم متحدين فى الدين. والتباين موجود حتى فى زمن المسلمين أيام كانت الهند قاطبة تخضع لحكومة واحدة بلغت النهاية فى القوة والسلطان . ترى الآثار الاسلامية المحضة مختلفة عن بعضها اختلافاً عظيماً بحسب الأقاليم التى شيدت فيها . فالشبه ضعيف جداً بين مساجد (أحمد أباد) و (لاهور) و(إكره) و (بيجاپور) وكلها تقام فيها عبادة واحدة . بل أنه أضعف من الشبه بين آثار (نهضة المعارف) والآثار (الغوطية) بأوروبا

وليس التباين فى الهند قاصراً على الآثار بل هو موجود أيضاً فى التماثيل بحسب الأقاليم سواء كان من جهة الشكل أو من جهة الصنع كما يظهر ذلك فى نقوش (سانش) البارزة

وتماثيلها . وفى تماثيل (برهات) وكلها مصنوعة تقريباً فى زمن واحد . وهو أظهر فى مصنوعات ولايتى (أوريسا) و (يوندلڤند) أو فى (ميسور) والهند الجنوبية . وهو ظاهر أيضاً فى أقل المصنوعات الفنية وليس من يجهل ذلك . وأقل خبرة تكفى لتميز علبة من الخشب المحفور صنع (ميسور) ومثلها من صنع (غزرات) أو حلية من حلى (أوريسا) ومثلها من صنع ساحل (بومباى) .

ولا شبهة فى أن عمارة الهند دينية قبل كل شىء مثل غيرها من عمارات الشرق ولكن مهما عظم أثر الدين ولا سيما فى الشرق فأثر الأمة أكبر

ذلك الروح الذى يجرى بالأمم الى غاياتها يجرى بالديانات أيضاً الى مصائرها كما يؤثر فى النظامات وفي الفنون . وهو أمامنا في كل عنصر من عناصر المدنية يتناوله بحثنا . وهو القوة التى لا قوة فوقها . أثره قوة على قدر ألوف الأجيال التى كوّنته . انه خلاصة أفكار تلك الأجيال

الباب الثالث

تاريخ الأمم باعتباره مشتقاً من أخلاقها

الفصل الأوّل

كيف تصدر النظامات عن روح الأمة

تاريخ كل أمة مشتق على الدوام من مزاجها العقلي — أمثلة مختلفة — بيان أن نظامات فرنسا السياسية منتزعة من روح الشعب — في أن حقيقتها ثابتة وان تغيرت في الظاهر — في أن جميع أحزابنا السياسية ترمي الى غرض واحد — صبغاتها وأسماؤها — في أن مذهبهم هو حصر السلطان وجمعه وقتل الحركة الذاتية في مصلحة الحكومة — في أن الثورة الفرنساوية انما قامت بتنفيذ خطة الحكومة الملوكية — في أن نظامات الأمم منتزعة على الدوام من خلقها الملي

انما التاريخ من الجهة العمومية عبارة عن شرح مجموع ما ولده روح الأمم فهو مشتق من ذلك الروح كما أن أعضاء

النفس في الأسماك متولدة من حياتها فى الماء . ومن جهل مزاج الأمة العقلى كان تاريخها فى نظره مجموع حوادث مضطربة ناموسها الاتفاق . ومن وقف على ذلك الروح تجلى له أن حياة الأمة نتيجة طبيعية لازمة لخلقها النفسى . ومهما اختلفت مظاهر حياة الأمم تجد أن روح الشعوب هى التى تنسج برد مصيرها

أجلى مظاهر روح الأمة فى نظاماتها السياسية . ومن السهل تقرير ذلك ببعض الأمثلة

هـذه فرنسا وهى احدى الأمم التى حصلت فيها الانقلابات الكلية . والتى يظهر أن نظاماتها السياسية تغيرت تغيراً تاماً فى بضع سنين . والأحزاب السياسية فيها على أشد ما يكون من الخلف والتباين . اذا أمعنا النظر فى تلك الأفكار المتناقضة فى ظاهرها ودققنا البحث فى تلك الأحزاب التى لا تهدأ الحرب بينها رأينا للجميع حقيقة واحدة تمثل روح الشعب الفرنساوى تمثيلاً تاماً . فالمتشددون والمتطرفون والملوكيون والاشتراكيون وبالجملة جميع أهل المذاهب المختلفة يجرون تحت أعلام مختلفة نحو غاية واحدة هى فناء الفرد فى

الدولة . كلهم مهتم بتحقيق حصر السلطان حصراً قيصرياً حتى يكون قياد كل شئ بيد الحكومة . وحتى تنظم هى كل شئ وتضم اليها كل شئ . وتقنن حياة الأفراد فى أدق الجزئيات . وتغنيهم مؤنة إعمال الفكر وان قليلاً . واستخدام الهمة وان يسيراً . وسيان سمى القابض على الزمام ملكاً أو أمبراطوراً أو رئيساً أو غير ذلك . فغايتها التى ترمى اليها واحدة . وتلك الغاية هى ممثلة مشاعر روح الأمة (١) . والأمة لا تقبل غاية أخرى

فمن جهة تدفعنا حركة أعصابنا وسهولة ميلنا عما استقر حولنا وتصورنا في أن حالنا يحسن لو أن لنا حكومة غير التى تسيرنا الى تغيير نظاماتنا في كل حين . ومن جهة ثانية نسمع صوت الأموات يقودنا ويقضى علينا أن لا نبدل الاَّ الألفاظ والظواهر . حتى لقد بلغت قوة تأثير روح الشعب اللاتنبهية فينا درجة لا نشعر معها ببطلان الخيال الذى نحن فيه

لا مشابهة في ظاهر الحال بين نظامنا القديم ونظامنا

---

(١) قال أحد أصحاب النظر الثاقب موسيو (ديبون وايت) « يمتاز روح الأمة الفرنساوية بأنه ليس من خلقها أن تنجح في بعض الأعمال الضرورية أو الكمالية المتعلقة بالحضارة من دون أن تحثها حكومتها عليه وتساعدها فيه »

بعد الثورة العظمى . والواقع أنها انما سارت في طريق الملوكية من حيث لا شعور . فأتمت حصر السلطة الذى كانوا يعالجونه من بضع قرون . ولو خرج لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر من قبرهما وشاهدا ما يجرى الآن في فرنسا مما صنعت الثورة لوجّها اللوم طبعاً الى ما استعمل من القسوة للوصول اليه . ولكنهما يريانه مطابقاً لتقاليدهما كل المطابقة . ولاعترفا بأنهما لو عهدا الى أحد وزرائهما بتنفيذ تلك الخطة لما كان أسعد حظاً في النجاح . ولقالا ان أبعد الحكومات الفرنساوية عن الثورة هى حكومة الثورة الفرنساوية . ولتحققا أنه منذ قرن تعاقبت الحكومات المختلفة الأوضاع ولم تحاول واحدة منها تغيير النظام الأول . ذلك لأنه ثمرة التطور المطابق للناموس الطبيعى واستمرار في التقاليد الملوكية الخاضعة لروح الأمة . نعم كان لا مناص لهذين الطيفين المجيدين من توجيه بعض النقد ومن ملاحظة أن استبدال طائفة الحكام الشرفاء بطائفة من المستخدمين أوجد في الحكومة ادارة لا شخصية هى أشدّ خطراً من سابقتها لأنها هى العنصر الوحيد الذى لا تناله التقلبات

السياسية ولها ماض وسوابق وفيها تضامن طبيعى . أخص صفاتها فقدان التبعة . واستمرارها يجعلها في النهاية صاحبة الكلمة العليا دون سواها . ولعلهما ما كانا يشدّدان اللوم على هذا الاعتبارهما أن اهتمام الأمم اللاتينية بالحرية أقلّ بكثير من اهتمامها بالمساواة . فهى تحتمل جميع طرق الاستبداد على شرط أن لا تكون صادرة عن فرد واحد . وقد لا يخفى عليهما ما ترتب من زياده القوة الاستبدادية على كثرة اللوائح وتعدد الضوابط التى تضايق الفرد في جميع حركاته . وأنه اذا تمّ للحكومة ضمّ كل شىء الى ذاتها وفرغت من التقنين في جميع المرافق . وجرّدت الأفراد من كل حركة ذاتية تكون الاشتراكية قد ألقت مراسيها عندنا بلا عناء وبلا حاجة الى ثورة أخرى . ولكنهما كانا يريان أيضاً بنور الملوكية أو بنور النظر الصائب الذى يعلمنا أن النتائج تزداد بنسبة المعادلة الحسابية باستمرار فعل المسببات عينها أن الاشتراكية عبارة عن أرقى درجة في سلم الملوكية . وأن الثورة انما عجلت بالوصول الى تلك الذروة العليا

هكذا تظهر فى نظامات الأمة تلك الأحوال العرضية

أتينا عليها فى أول الكتاب وهذه النواميس الثابتة التى نحاول تقريرها . والأولى تخلق الأسماء وتوجد الظواهر . والثانية هى نبت الخلق الملى وهى التى تقدر مصير الأمم

وفى مقابل المثال السابق نجد مثال شعب آخر أعنى به الأمة الانكليزية لأن مزاجها النفسى مباين لمزاج أمتنا . وبهذا وحده بعدت الشقة بين النظامات فى الأمتين بعداً كبيراً

لا تختلف حقيقة الحكومة فى الأمة الانكليزية سواء كان المستوى على عرشها ملكاً كما فى بريطانيا أو رئيساً كما في الولايات المتحدة . ففيهما ينكمش أثر الدولة الى أقلّ حدّ ممكن . ويعظم أثر الفرد الى أقصى غاية ممكنة . والأفراد هم الذين يقومون بالأعمال العامة الكبرى كالمرافئ والترع والسكك الحديدية ودور التربية وهكذا دون الحكومة . وهذا على الضد مما يجري عند الأمم اللاتينية

وأجلى مظاهر تفوق الحركة الذاتية يشاهد في أمريكا لأن تلك الحركة ضعفت كثيراً في انكلترا منذ خمس وعشرين سنة حيث تغار عليها الحكومة شيئاً فشيئاً . وليس فى استطاعة ثورة ولا قانون نظامى ولا مستبد قاهر أن يحصل

للأمة ذلك الخلق الذى تستمد منه نظاماتها ولا أن ينتزعه منها ان كان لها من قبل . وقد قيل مراراً وأُعيد تكراراً أن لكل أمة الحكومة التى هى حقها . وما كان من الجائز أن يتصوّر العقل غير هذا

وسنبين قريباً أنه ليس في استطاعة الأُمة أن تهرب من نتائج مزاجها العقلى . واذا اتفق لها ذلك فليوم أو بعض يوم . كما يخيل أن الرمال حملتها الرياح تخالف ناموس الجذب المغناطيسى . ومن الوهم الاعتقاد بأن للحكومات والنظامات أثراً في مصير الأُمم . بل أن مصيرها كائن فيها هى لا في الأحوال الخارجة عنها وكل الذى يجوز تكليف الحكومة به أن تمثل مشاعر وأفكار الأُمة التى ألقت مقاليدها اليها . وكل حكومة هى صورة صحيحة لأمتها بحكم وجودها . وما من حكومة ولا نظام يمكن الحكم بصلاحيته مطلقاً أو بفساده كذلك . فمن المظنون ان حكومة ملك (الداهومى) كانت حكومة طيبة جداً بالنسبة للأمة التى خضعت لسيادته. وأن أرقى نظام أوروبى ربما كان غير لائق بتلك البلاد . ذلك ما يجهله لسوء الحظ رجال الحكومات الذين يتصورون أن

الحكومة بضاعة يمكن تصديرها للأمم الأخرى . وأن من الجائز حكم المستعمرات على مقتضى نظامات العاصمة . ولا فرق بينهم فى هذا وبين من يحاول اقناع السمك بامكان البقاء فى الهواء بحجة أن التنفس الهوائى ناموس جميع الحيوانات الراقية

ولاختلاف الأمم فى المزاج العقلى يتعذر بقاؤها كلها تحت سلطان نظام واحد زمناً طويلاً . وما خضع الانجليزى والارلندى والسلافى والمجرى والعربى والفرنساوى لقانون واحد الاَّ بتكبد المشقات واحتمال ثورات تتجدد من حين الى حين . لذلك كان مقضياً على الدول العظيمة الممتدة السلطان على أمم مختلفة بسرعة الزوال . واذا وجد منهـا من طالت حياتها كدولة (المغول) ثم الانجليز فى الهند فذلك أولاً لشدة التنازع بين شعوب تلك البلاد الناشئ من تعددها فلا تفكر فى الاتحاد ضد الأجنبى . وثانياً لما للسادة الغرباء من النظر الثاقب والبصر السياسى الذى جعلهم يحترمون عادات الأمم الخاضعة لحكمهم ويتركونهم يعيشون فى ظل شرائعهم

مادة البحث فى نتائج مزاج الأمم العقلى كبيرة لو

استقصيناها لكان لنا من ذلك كتب عدة . ولتبدل التاريخ كله من بدايته وبرز فى ثوب لم يعرفه الناس حتى الآن . وعندى أنه كان يجب اتخاذ درس هـذه المادة قاعدة فى السياسة والتربية . فقـد يكون ذلك عاصماً من خطأ كثير ومانعاً من تعدد الانقلابات لو تيسر للأمم أن تهرب من المقدور لها بمقتضى روحها الملى . ولم يخفت على الدوام صوت العقل أمام ذلك الصوت القاهر . صوت من فى القبور

الفصل الثانى

تطبيق النظريات السابقة على تطوُّر الولايات المتحدة بأمريكا والجمهوريات الاسبانية الأمريكية

الخلق الانجليزى — كيف تكون الروح الأمريكى - صعوبة التحول الناشىء عن أحوال المعيشة — تحتم فناء العناصر المنحطة — الزنوج والصينيون — السبب فى رقى الولايات المتحدة وانحطاط الجمهوريات الاسبانية الأمريكية بالرغم من اتحاد نظامات الجهتين — فى أن الفوضى التى وقعت فيها الجمهوريات الاسبانية الأمريكية نتيجة لازمة لانحطاط الشعب

تبين من الملاحظات الموجزة التى تقدمت أن نظامات الأمة مستمدة من روحها وأنه اذا سهل عليها تغيير صورتها فهى لا تقدر على تغير حقيقتها . والآن نريد أن نبين بأمثلة جلية مقدار تسلط هذا الروح على مصير الأمة . وأن شأن النظامات فى ذلك شأن لا يذكر [١]

---

(١) ترك الاجتماعى الكبير (هربرت سبنسر) فى مؤلفاته الكبيرة الكلام على تأثير الخلق في مصير الامم وجرّته نظرياته الجميلة بادىء الامر الى

وانى أرجع فى هذه الأمثلة الى بلد يعيش فيه جنباً لجنب فى أحوال لا تكاد تختلف عن بعضها من حيث البيئة شعبان أوروبيان متحضران ذكيان ولا يختلفان عن بعضهما الاَّ بالخلق . وأعنى به البلاد الأمريكية . هذه البلاد مكونة من قارتين بينهما برزخ . ومساحة احداهما تقرب من مساحة الأخرى . والأرض متشابهة فى كليهما . وقد فتحت احداهما واستوطنتها أمة انجليزية . وأقامت فى الثانية أمة اسبانية . والأمتان تعيشان تحت نظام جمهورى متشابه . لأن جمهوريات الجنوب نقلت اليها نظامات الولايات المتحدة . وليس هناك ما تستعين به على ادراك سبب التباين بين حال الأمتين الأ الاختلاف الجنسى . فلننظر أثر ذلك

ونبدأ بذكر مجمل من صفات الشعب الانكليزى

حسن التفاؤل . فلما رأى في شيخوخته أن يعير الخلق التفاته غير حكمه تغييراً تاماً وبدله برأى كله تطير . ورأيه الاخير ظاهر في خطاب نشر حديثاً متعلق ببلاد (تندال) ونقلته مجلة المجلات واليك شيئاً منه « لقد ضعف ايمانى كثيراً في السنين الأخيرة بالنظامات الحرة بعد أن كان متيناً . وأرى أننا نتقهقر الى نظام تقبض علينا فيه يد من حديد ويمثله الاستبداد الاداري الذى تنظمه الاشتراكية ثم الاستبداد العسكرى الذى سيخلفه اذا لم يعجل به الينا الاضطراب الاجتماعى »

السكسونى الذى يسكن الولايات المتحدة . فهو أشدّ شعوب الأرض على التقريب وحدة وتماثلاً ومن السهل جدًّا تعريف مزاجه العقلى فى مجموعه

أخص ما يمتاز به هذا المزاج من حيث الخلق قوة ارادة فلما كانت لأمة من الأمم اللهمّ الا الأمة الرومانية فى الأزمان الخالية . وعزيمة لا تمارى . وهمة عالية . ومقدرة على النفس كاملة . واستقلال يبلغ حدّ الخروج عن المدنية . ونشاط قدير . ومشاعر دينيـة شديدة . وأدب ثابت ومعرفـة واجب تامة

وأما من جهة الذكاء فلا يسهل بيان صفات مميزة خاصة أعنى عناصر ممتازة يمتنع وجودها فى الأمم المتحضرة الأخرى . وغاية ما يمكن ذكره أن هذا الشعب ذو تصور صحيح يسمح لصاحبه بادراك الجهة العملية فى المحسوسات . ولا يضل به فى أبحاث وهمية . و بعبارة أخرى ذوق شديد الحس بالواقع وضعيف بالنسبة للنظريات الكلية . ثم شئ من ضيق العقل يمنع من الالتفات الى الجانب الضعيف فى المعتقدات الدينية ويجعل هذه المعتقدات فوق المناظرات . يضاف الى هذه

الصفات العامة أمل قوىّ فى رجل عرف سبيله فى الحياة واعتقد أنه ليس له أن يبدله بأحسن منه . رجل عرف ما عليه لوطنه وأهله وربه . يبلغ منه الأمل درجة حقرت فى عينه ما هو غريب عنه . والواقع أن احتقار الأجنبى وعاداته فاق فى الانجليز ما كان عند الرومان من ذلك للبرابرة أيام عظمتهم فهم لا يرعون ناموس الأدب فى جانب الأجنبى . ولا تجد بين ساسة الانجليز واحداً لا يرى جواز استعمال أمور فى جانب أمة أجنبية لو أتاها فى بلاده لأنزلت به السخط من كل ناحية . ولا شبهة فى أن ذلك الخلق منحط فى نظر الفلسفة ولكن فائدته كبيرة فى رقى الأمة وتقدمها . فهو احدى قوى انجلترا . كما أشار اليه القائد الانجليزى (ولسلى) ولقد أصاب القائلون فى رفض الانجليز بناء نفق تحت بحر المانش يسهل المواصلات على القارة الأوروبية بأن الانجليز يهتمون اهتمام الصينيين بمنع كل تأثير أجنبى من الدخول الى بلادهم

جميع الصفات المتقدمة موجودة فى طبقات الأمة كلها فما منها الاّ وله أثر فى عناصر المدنية الانجليزية . يظهر ذلك لكل من زار بلادهم ولو بضعة أيام . يرى الحاجة الى المعيشة

الاستقلالية بادية فى مسكن أحقر أجير . فهو مسكن ضيق بالضرورة ولكنه منعزل لا يضايقه قرب الجوار . ويراه فى محطات السكك الحديدية حيث يتمشى الناس دائماً ولا يقفون متكأكئين كقطيع الغنم المستسلم خلف حاجز مخفور بالرقباء كأنما هم يسهرون على صون أولئك القوم من الخطر لأنهم لا يجدون من أنفسهم حيطة يتقون بها دهس العربات . يرى عزيمة الشعب بادية فى عمل الأجير الشاق كما يراها فى عمل التلميذ ترك لشأنه فطفق يتعلم السير فى الحياة وحده . وقد صار يعلم أنه ما من أحد يهتمّ بمصيره فيها الاَّ نفسه . يراها فى عمل الأستاذ يهتم قليلاً بالتعليم ويفرغ جهده فى تربية الأخلاق لاعتبارها عنده أكبر عامل فى حركة العالم [١] . واذا ألقى نظرة فى الحياة العمومية وجد أن حركة الافراد الآتية لا قوة الحكومة هى التى تقوم بأغلب الأعمال سواء كان المراد

---

(١) قررت الملكة فيكتوريا مكافأة سنوية لمدرسة (ولنجتون) وعهدت الى البرنس (ألبير) بتحديد شروط نيلها فقرر أن تهدى لأرفع التلاميذ أخلاقاً لا لأكثرهم علماً وكانت هذه المكافأة تقرر من دون شك فى أمة لاتينية للتلميذ الذى يجيد القاء ما حفظه عن الكتب . فتعليمنا كله حتى الراقى منه منحصر فى تحفيظ الدروس للتلاميذ وتتأصل فيهم هذه الملكة فيستمرون على القاء ما حفظوا بقية حياتهم

اصلاح مستشفى القرية أو انشاء مرفأ بحرى أو سكة حديدية . فاذا تعمق فى النظر تحقق أن هذه الأمة رغم عيوبها التى براها الأجنبي لأجلها أشد الأمم جفاء هى الأمة الوحيدة الحرة بالمعنى الصحيح . لأنها هى الوحيدة التى عرفت كيف تحكم نفسها فتمكنت من أن تحدد لحكومتها أصغر دائرة ممكنة . واذا تصفح تاريخها علم أنها أول أمة خلصت من كل سيطرة سيان فى ذلك سلطان الكنيسة وسلطان الملوك . فمنذ القرن الخامس عشر كان الفقيه (فورستيكو) يعارض القانون الانجليزى بالقانون الرومانى الموروث عن الأمم اللاتينيـة وأحد القانونين من عمل الملوك المطلقين ومرماه تضحية الفرد . والثانى من عمل المجموع وغايته حمايته

أنى نزلت أمة هذى صفاتها تعلو كلمتها بلا مهل وتقيم صروح دول قادرة . فان كانت الأمة التى نزلت فيها ضعيفة لا ينتفع بها كما ينبغى مثل أمة (پوروج)[١] انقرضت وبادت . وان كانت كثيرة العدد كأمة الهنود ولها مقدرة على العمل

---

(١) هم هنود أمريكا الشمالية ومعنى هذا الاسم (ذوو البشرة الحمراء) سموا كذلك لدلكهم أجسامهم بالتراب الاحمر ولونهم الحقيق أسمر قاتم

المفيد أخضعت الى تابعية قوية . وسخرت الى العمل لفائدة مواليها الاّ يسيراً

وأخص البلاد التى تظهر فيها آيات رقى الأمة الانجليزية المنتزع من مزاجها العقلى هى البلاد الجديدة كالأقطار الأمريكية . نزحت تلك الأمة الى أقاليم لا زرع فيها ولا يقطنها الاّ نفر قليل من المتوحشين . وليس للنازحين ما يستعينون به الاّ ما كان من أنفسهم . وكل الناس يعرفون اليوم ما وصلت اليه . فلم يمضِ عليها قرن واحد حتى ارتقت الى مصاف الدول العظمى على وجه المسكونة . وقليل من الأمم يستطيع الآن مكافحتها . وانى أوصى بكتب موسيو (روزييه) و (بورچيه) عن الولايات المتحدة من يريد الوقوف على مقدار ما ينفقه سكان الجمهورية العظيمة من النشاط والحركة الذاتية . هنالك بلغت مقدرة الأفراد غايتها فى حكم أنفسهم بأنفسهم . وفى تأليف الشركات لانفاذ أعظم المشروعات . وتخطيط المدائن . وتأسيس المدارس . وبناء المرافئ . ومدّ السكك الحديدية وهكذا . وهنالك قلّ تداخل الحكومة حتى يخيل للإنسان أن ليس من سلطة عامة . بل هو يحار

فى أن يجد لتلك السلطة عملاً فى غير أمور الشرطة والسياسة

أصبح من المتعذر على غير متصف بتلك الأخلاق أن يرقى فى البلاد الأمريكية . وهذا هو السبب فى أن النازحين اليها لا يؤثرون فى شعبها . ومن لم يكن على تلك الصفات فحكمه الزوال لا محالة . ولا يقدر على البقاء فى ذلك الوسط الاَّ الانجليزى السكسونى . لأنه وسط متشبع بالاستقلال وملؤه العزيمة والإقدام . الايطالى يموت فيه جوعاً . والارلندى والزنجى يعيشان فى أحط الخدم

الجمهورية الكبرى هى بلا ريب أرض الحرية . ولكنها ليس أرض المساوة ولا أرض الإخاء . فما المساواة والإخاء الاَّ وهمان لاتينيان لا محل لهما فى ناموس الارتقاء . وما اشتدّ أثر التناسل فى بلد شدّته فى أمريكا . فهو فيها لا يعرف للاستثناء باباً . ذلك سرّ بقاء الأمة على مناعتها ونشاطها . أما الضعفاء ومتوسطى الحال وفاقدى الأهلية فلا محل لهم فى الولايات المتحدة . تراهم لضعفهم معرضين حتماً للزوال أفراداً وأمماً على السواء . ودليل ذلك عشائر (پوروج) لما أصبحت عديمة النفع بادت رمياً بالرصاص أو قتلاً بالجوع .

وعما قليل يلحق بهم العملة الصينيون الذين يزاحمون أهل البلاد بعملهم [١] وقد أصدروا قانوناً باخراجهم منها جملة ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من المال اللازم لاجلائهم . ولا بدّ من الاستعاضة عنه عاجلاً بالإعدام المنظم . وقد بدأ ذلك فى جملة مقاطعات معدنية . وكذلك أصدروا قوانين بمنع مهاجرة الفقراء الى الولايات المتحدة منعاً باتاً . وأما الزنوج الذين كانوا السبب فى الحرب الأهلية التى قامت بين موالى العبيد وبين الذين ما كان يسمح لهم بملكهم فهم محتملون احتمالاً لأنهم لا يزاولون الاّ أعمالاً ثانوية يعافها الوطنى الأمريكى . نعم هم يتساوون معهم فى الحقوق قانوناً ولكنهم فعلاً يعاملون كالعجموات ذات النفع القليل . وسرعان ما يتخلص القوم منهم اذا آنسوا منهم شراً . والأمريكان مجمعون على الاكتفاء فى ذلك بالطرق القديمة التى سنها قانون (لنش) فأول ما تقع منهم جريمة يتضايق منها الناس يرمونهم

---

(١) هناك قانون يبيح للأمة أن تفعل ما تشاء بأسود تراه مجرماً بعد أن يكون قدم للقضاء وحكم عليه بعقوبة هينة أو برىء أو أنه لم يقدم للحاكم لعدم وجود نص . وعادتهم أنهم يشنقونه أو يضربونه ضرباً مبرحاً وقد بطلت هذه العادة الآن الاّ فى الأقاليم الغير الآهلة بالسكان فى الولايات الغربية والجنوبية الغربية

بالرصاص أو يشنقونهم . وقد ذكر الإحصاء وهو ناقص جداً أن الذين انفذت فيهم هذه المشيئة يزيدون على الألف مدى السنين السبع الماضية

نعم هذه هى الناحية السوداء من صورة تلك البلاد غير أن شدة بهائها قادرة على احتمال هذا السواد . واذا أردنا أن نعرف بكلمة واحدة ما بين أوروبا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا ان الأولى مثال ما يمكن أن تنتجه الأمة التى قامت فيها الحكومة مقام الفرد . والثانية مثال ما يمكن أن تنتجه همة الأفراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمى . وليس لهذه الفروق الكلية منشأ الا الأخلاق . ومن المحقق أن الاشتراكية الأوروبية لا تجد لها مكاناً تنزل به فى البلاد الأمريكية . لأن الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش الاَّ فى الأمم التى شاخت بعد أن خضعت قروناً طويلة الى نظام أفقدها الأهلية لحكم نفسها

هذا هو الذى أوجده فى أحد قسمى البلاد الأمريكية شعب تغلبت فى مزاجه العقلى صفات الثبات ومضاء العزيمة وقوة الإرادة . فلننظر الآن حال بلاد متشابهة بين يدىّ

شعب آخر لا مراء في ذكائه ولكنه مجرد عن الصفات التى شرحنا آثارها

أمريكا الجنوبية أغنى بلاد الدنيا من جهة حاصلاتها الطبيعية . وتبلغ مساحتها ضعف مساحة أوروبا . وهى أقلّ سكاناً منها عشر مرّات . والأرض هنـاك لمن يفلح . وهى معروضة على الجميع . والعنصر السائد اسبانى . وهى تنقسم الى عدة جمهوريات . منها (الأرجنتين) و (البرازيل) و (شيلى) و (پيرو) وغيرها . وكلها اختارت نظـام الولايات المتحدة . فهى تعيش فى حكم قوانين واحدة . ومع ذلك فجميع هـذه الجمهوريات بلا استثناء طعمـة للفوضى الدموية . والسبب الوحيد هو اختلاف العنصر وفقدان الصفات الأساسية التى رأيناها عند أهل الولايات المتحدة . وبالرغم من خصوبة أرضها تنتابها الخسائر من كل نوع . ويحفها الافلاس ويقتلها الاستبداد

من أراد الوقوف على مقدار انحطاط الجمهوريات الاسبانية الأمريكية فعليه بكتاب موسيو (ت . شيلا) فانه سفر نفيس تجرد واضعه عن الغاية . فيه بيان أن أسباب هذا

الانحطاط هو مزاج الأمة العقلى فقد تجردت عن العزيمة والارادة والملكة الأدبية . وتجردها من هذه المزية الأخيرة وصل الى أحط الدرجات المعروفة فى أوروبا . ذكر المؤلف المشار اليه مدينة من أهم مدن تلك البلاد وهى (بوينوس أيريس) فقال « انها لا تليق بسكنى من فيه حبة من الوجدان الحى وأقل ذرة من الأدب » . وقال فى جمهورية (الأرجنتين) وهى أقلها انحطاطاً من هذه هذه الجهة « من نظر الى هذه الجمهورية فى معاملاتها التجارية علاه الخجل من سوء الذمم الظاهر كالشمس فى كل مكان »

ما من بلد يستدل فيه على كون النظامات نبت الجنس مثل تلك البلاد وعلى أنه من المستحيل نقلها من أمة الى أخرى . والنفس تتوق الى معرفة ما صارت اليه النظامات الحرة للولايات المتحدة بانتقالها الى شعب أحط منها . قال موسيو (شيلد) عن الجمهوريات الاسبانية الأمريكية « انها فى قبضة رؤساء لهم فيها من السلطان المطلق ما لقيصر روسيا بل أشد من ذلك لبعدهم عن المراقبة الأوروبية . جميع الموظفين من صنائعهم . والأهالى ينتخبون البعض كما يشاؤون

ولكن لا عبرة بانتخابهم البتة وليس لجمهورية (الأرجنتين) من الجمهورية الاَّ اسمها. والحقيقة أنها حكومة مطلقة فى أيدى أناس تخذوا السياسة متجراً »

وبلاد البرازيل هى التى كانت نجت من هذا السقوط والفضل فى ذلك للحكومة الملكية التى منعت السلطة من الوقوع فى مخالب الأهواء. ولما كانت تلك الحكومة حرّة بقدر يزيد على ما تقتضيه حالة شعب لا همة له ولا ارادة سقطت هى الأخرى وهوَت معها الأمة الى الفوضى. وبدد رجال الحكومة أموال الأمة فى بضع سنين ثم زادوا الضرائب ستين فى كل مائة

وليس سقوط الأمم اللاتينية التى استقرت بالبلاد الأمريكية فاشياً فى السياسة وحدها بل ظاهر ايضاً فى عناصر المدنية كلها. ولا شبهة فى أن بقاء تلك الجمهوريات التعيسة متروكة لشأنها ينتهى برجوعها الى الهمجية. فقد أصبحت التجارة كلها وكذا الصناعة فى يد الأجنبى من الانجليز والأمريكان والألمان. وأصبحت (ڤالباريزو) مدينة انجليزية. ولولا الأجانب لما بقى شىء فى (شيلى).

ولولا الأجانب لما بقى لتلك البلاد طلاء المدنية الذى تفتر به أوروبا حتى الآن . وفى جمهورية الأرچنتين أربعة ملايين من البيض أصلهم من الاسبانيين . ولا أدرى ان كان يوجد واحد منهم على رأس صناعة ذات أهمية حقيقية بل كل ذلك فى يد الأجنبى

ان فى سقوط العصر اللاتينى هذا السقوط المريع لمجرد كونه متروكاً لشأنه ومقارنته برقى العصر الانجليزى فى بلد تجاوره مثاراً للحزن والأسى . ولكنها مشاهدة ليس أصدق منها فى الاستدلال على صدق النواميس النفسية التى شرحناها

الفصل الثالث

فى أن تغير روح الأمة يغير من تطوُّرها فى الحياة

فى أن تأثير العناصر الأجنبية يغير روح الأمة ويبدل حضارتها — مثال الرومان — فى أن حضارة الرومان لم تسقط بالغارة الحربية وانما سقطت باغارة البربر السلمية — فى أنه لم يجل بخاطر البربر اسقاط الدولة — فى أن غارتهم لم تكتسب شكل الفتح — فى أن الرؤساء الفرنك الأولين اعتبروا أنفسهم على الدوام موظفين فى خدمة الدولة الرومانية — فى أنهم احترموا على الدوام خطورة الرومان وما فكروا الاّ فى البقاء عليها — فى أن عدول الرؤساء البربر فى بلاد الغول[1] عن اعتبار الامبراطور الرومانى رئيساً عليهم لم يبدأ الاّ فى القرن السابع — فى ان تغير الحضارة الرومانية تغيراً تاماً لم يكن نتيجة هدم أسسه وتخريب أساطينه ولكنه ناشىء من أن شعباً جديداً تمثل تلك الحضارة القديمة — غارات العصر الحاضر فى الولايات المتحدة — فيما يتهيأ بسبب تلك الغارات من المنازعات الداخلية والافتراق الى حكومات مستقلة متنافرة — فى غارات الأجانب بفرنسا ونتائجها

تبين من الأمثلة المتقدمة أن حضارة الأمة لا ترجع الى نظاماتها بل الى خلقها أعنى طبيعة شعبها . وكذلك رأينا عند البحث في تكوّن الأمم التاريخية أن انحلالها ينجم عن التناسل مع الأجنبى . وأن الأمم التى حفظت نفسها من

---

(١) هو اسم بلاد فرنسا قديماً

ذلك الانحلال وصانت وحدتها وقوتها هى التى ابتعدت كل البعد عن الاختلاط بالأجانب كأمة (الآريين) فى الهند قديماً وكالأمة الانجليزية فى جميع مستعمراتها حديثاً . وأن وجود الأجانب وان قلّوا كافٍ لتغيير روح الأمة لأنه يفقدها القدرة على الدفاع عن خلفها النوعى وعن آثار تاريخها وما صنع آباؤها الأولون

هذه النتيجة مستخلصة مما قدمناه واذا صحّ أن عناصر الحضارة عنوان روح الأمة صحّ أن تغير هذه الروح مدعاة لتغير تلك الحضارة ، ولنا على ذلك أمثلة كثيرة فى الماضى وسيكون الحال كذلك فى المستقبل

أهم مثال صحّ فى هذا البحث تطوّر الحضارة الرومانية . وقد ذهب المؤرخون الى أن هذه المشاهدة كانت فى الغالب نتيجة اغارة البربر . لكن اذا دققنا النظر علمنا أن الذى أوجب سقوط الدولة الرومانية انما هى الغارات السلمية لا الحربية . وأن البربر فضلاً عن كونهم لم يعمدوا الى هدم الحضارة الرومانية فانهم عملوا على احترامها وأفرغوا جهدهم فى الانطباع عليها وادامتها فحاولوا ضم لغتهم اليهم والقيام على

نظاماتهم وفنونهم . وظلوا يستبقون ما ورثوا من تلك الحضارة حتى فى عهد آخر الملوك (الميروفنچيين) . وجميع أعمال الملك شارلمان العظيم مصبوغة بهذه الصبغة

غير أنا نعلم أن مثل هذا العمل مستحيل . لذلك مضى على البربر قرون عديدة حتى تسنى لهم تكوين شعب متحد العنصر نوعاً بواسطة التناسل ووحدة المعيشة . فلما وجد الشعب الجديد كان له بالضرورة فنون جديدة ونظامات كذلك وان شئت فقل حضارة جديدة . نعم لم تخلص هذه الحضارة من تأثير حضارة الرومان الاَّ أن المجهودات التى بذلت لإحياء هذه الحضارة ذهبت ادراج الرياح : فما أفلحت (النهضة العلمية) فى اعادة فنونها ولا الثورة فى اقامة وزن نظاماتها

وعلى ذلك ليس من الواقع أن البربر الذين بدأت غارتهم على المملكة الرومانية منذ القرن الأول للميلاد وانتهى بهم الأمر الى ابتلاعها لم يقصدوا اماتة حضارتها بل تعمدوا استبقاءها . وعلى فرض أنهم لم يقاتلوا الرومانيين وأنهم اقتصروا على الاختلاط بهم شيئاً فشيئاً والرومان يقلّون يوماً

عن يوم فان مجرى التاريخ لم يكن ليتغير ولكانت النتيجة ما رأينا أعنى أن مجرد اختلاط البربر بالرومان كان كافياً فى اماتة الروح الرومانيـة وان لم ينهدم صرح الدولة . وعلى ذلك يصحّ القول بأن الحضارة الرومانية لم تنقلب دفعة واحدة بل استمرت تتحوّر على مرّ الأيام لا لسبب غير وقوعها بين يدى شعوب أجنبيـة . ونظرة بسيطة فى تاريخ غارات البربر تؤيد ذلك

دلت أبحاث المنقبين العصريين وأخصها ابحاث (فوستيل دى كولانج) على أن غارات البربر السلميـة هى التى قوّضت أركان الدولة الرومانية لا الغارات الحربية التى كان الرومان يدفعونها من غير عناء بواسطة البربر المقيمين فى خدمة الدولة. لأنه منذ عهد الأمبراطرة الأولين تمكنت عادة استخدام البربر فى الجيش الرومانى . وكانت هذه العادة تتقوى وتنمو كلما اتسعت ثروة الرومان ومالوا عن الجندية . وفى بضع قرون أصبح الجيش ووظائف الحكومة كلها من الأغراب فكان الجند مؤلفاً من (الوزغوط) و (البرجونديين) و (الفرنك) وبحكم تكوين الجيش وادارة الأقاليم من البربر كان

لا بدّ من استقلال الولايات شيئاً فشيئاً . وكذلك كان . غير أن نفوذ الدولة كان بالغاً حدّاً لم يجرأ معه البربر على أن يقلبوا لها ظهر المجن حتى الذى كانت له السيادة على نفس روما . والدليل على ذلك أنه لما استولى أحد رؤساء البربر على روما سنة ١٤٧٦ وهو (أدواكر) ملك (الهيرول) التابع للدولة الرومانية أسرع فالتمس من الأمبراطور فى القسطنطنية الاذن له بتولى حكم ايطاليا تحت اسم (پاتريس) ومعناه (سيد) ولم يخالف هذه السنّة واحد من أولئك الرؤساء بل كانوا يحكمون الولايات باسم روما . وما فكروا يوماً فى أن يتصرفوا فى الأرض أو يمسوا النظامات بتغيير ما . وكان (كلوڤيس) يعتبر نفسه موظفاً رومانياً . وكم كان افتخاره لما نال من الأمبراطور لقب (قنصل) . فظلّ خلفاؤه من بعده ثلاثين عاماً يصدعون بقوانين الأمبراطرة ويرون من المفروض عليهم حمل الناس على احترامها . ودام الحال هكذا الى القرن السابع حيث اجترأ الرؤساء من البربر فى (الغول) على ضرب السكة وفيها صورهم وكانت لذلك العهد تحمل صورة الامبراطور . ومن ذلك العهد يصح القول بأن رؤساء البربر لم يعودوا

يعترفون برئاسته . وعليه يكون المؤرخون مخطئين فى بدءهم تاريخ فرنسا قبل الواقع بمائتى عام واضافتهم عشرة ملوك الى عقد ملوكنا

كانت غارات البربر على روما بعيدة عن مشابهة الفتح لأن الأهالى داموا على أرضهم ولغتهم وشرائعهم مما لا يقع فى أحوال الفتح الحقيق كما حصل فى انكلترا لما فتحها النورمانديون ومن المظنون أن زوال الدولة الرومانية حصل تدريجاً بحيث لم يشعر به المعاصرون . فكانت الأقاليم متعودة منذ قرن على ولاة يحكمونها باسم الامبراطور . ولم يستخلص أولئك الولاة الحكم لأنفسهم الاَّ متدرجين على مهل كبير . فما بدلوا شيئاً بل استمرّ الحال القديم تحت امرة جديدة طول عهد (الميروفنجيين) [1]

انما التغير الوحيد الذى صار كلياً هو تكوين شعب تاريخى جديد . وظهور حضارة جديدة كأثر لازم لهذا الشعب طبقاً للنواميس التى قررناها

---

(١) قال موسيو (فوستيل دى كولانج) ان حكومة الميروفنجيين تكاد تكون صورة لحكومة الامبراطورية الرومانية فى بلاد (الغول) ولا شىء فيها من حكومة الشرفاء

هذا ناموس متجدد الأثر على الدوام ويخال أنه أثبت نواميس حياة الأمم وكأنا نشاهد معه فى هذه الأيام غارات سلمية شبيهة بالتى بدلت حضارة الرومانيين . قد يخال من انتشار الحضارة فى هذا الزمان أن البربر انقرضوا أو أنهم بعدوا عنا وتوسطوا آسيا وأفريقيا فلم نعد نحسب لهم حساباً . ومن المحقق أننا لن نخشى غارتهم علينا ولا خوف منهم الاَّ من جهة المنافسة الاقتصادية التى قد يحاربوننا بها يوماً من الأيام كما أوضحت ذلك فى كتاب آخر . فليس كلامنا فيهم بل الكلام فى أن هناك بربراً نحسبهم بعيدين عنا وهم فى الواقع أقرب منا الآن من بربر الامبراطورية الرومانية لأنهم مقيمون بين ظهرانى الأمم المتحضرة . ذلك أن حضارتنا أصبحت متشعبة العناصر مشتبكة الأجزاء وأن الفروق بين الأفراد كثرت وتنوعت كما بيناه من قبل . وأصبح فى كل أمة عدد كبير من العناصر المنحطة التى لا قدرة لها على احتمال حضارة زاد رقيها عن طاقتهم . وهذا التحليل كل يوم فى ازدياد . وهو يزداد ضخامة شيئاً فشيئاً . وغارته ستكون القاضية على الأمة التى تبلى به

الآن يركب البربر الجديدون غارات الاغتراب الى الولايات المتحدة بأمريكا وهم الذين يخشى شرهم على حضارة تلك الأمة العظيمة . فلما كانت الهجرة قليلة وكان المهاجرون من الانكليز كان امتصاصهم سهلاً مفيداً . وتلك الهجرة هى التى أقامت عظمة أمريكا . أما اليوم فقد طفح على الولايات المتحدة سيل جارف من العناصر المنحطة وهى لا ترغب فى امتصاصهم ولا تقدر على ذلك ان أرادت . دخلها من الغرباء ما يقرب من ستة ملايين بين سنة ١٨٨٠ — ١٨٩٠ كلهم على التقريب من الأجراء الغير الراقين . وهم أجناس شتى . وليس فى مدينة (شيكاغو) الآن من الأمريكان الربع من سكانها وعددهم (١،١٠٠،٠٠٠) نسمة . ففيها (٤٠٠،٠٠٠) ألمانى و (٢٢٠،٠٠٠) ارلندى و (٥٠،٠٠٠) بولونى و (٥٥،٠٠٠) تشيك وغير هؤلاء . ولا امتزاج بين هؤلاء الأغراب وبين الأمريكان . وهم لا يهتمون حتى بتعلم لغة وطنهم الجديد . وانما هناك جاليات تعمل أعمالاً ربحها يسير . لذلك هم غير راضين ولذلك هم أعداء أهل البلاد . وقد كادوا يحرقون المدينة مدة اعتصاب عمال السكك الحديدية حتى اضطرت الحكومة الى

أن تعمل فيهم مدفع (المترااليوز) بلا رحمة . ومنهم يخرج دراويش تلك الاشتراكية السمجة التى تهدم العوالى والتى قد يسهل قيامها فى أوروبا بسبب ما ألمَّ بها من الضعف ولكنها تنافر طبع الأمريكى منافرة كبرى . وسيكون التنازع الذى تولده هذه المذاهب فى الجمهورية العظيمة تنازع عناصر افترقت فى تطوُّرها

والظاهر بالبداهة أن الغلبة لا تكون حليفة البربر فى الحرب الأهلية التى ستستعر نارها بين أمريكان أمريكا وأمريكان الأجانب فى تلك البلاد . وأن تلك المعركة الهائلة ستنتهى بمقبرة هائلة تعيد ذكرى استئصال (السَّامبر) [١] من يد (ماريوس) ولا تختلف عنها الاَّ في ضخامتها . واذا تأخرت الحرب واستمرت الهجرة لا يكون الاستئصال تاماً . وربما صارت الولايات المتحدة الى ما صارت اليهِ الدولة الرومانية أعنى أنها تفترق الى حكومات مستقلة بعضها عن بعض تنتابها الانشقاقات والحروب كما هو الحال فى أوروبا أو فى أمريكا الاسبانية

(١) أمة من البرابرة أغارت على بلاد الغول قبل الميلاد بمائتى عام فلاقاها حاكم اسمه (ماريوس) وحاربها حرباً طحنها بها طحنا

وليست أمريكا وحدها هى المهددة بهذه الغارات . فمن الأمم الأوروبية ما يتوقع لها مثل ذلك أعنى الأمة الفرنساوية . البلاد غنية . وعدد سكانها لا يزيد . ومن حولها أمم فقيرة سكانها فى ازدياد مستمرّ وهجرتهم اليها أمر محتوم ويساعد على ذلك ازدياد مطالب الأجراء الفرنساويين الذين يلجئون قومهم بذلك الى قبول الغرباء فى الأعمال الزراعية والصناعية . وللنازحين الينا منافع ظاهرة . فلا هم مكلفون بالخدمة فى الجندية . ولا ينالهم شئ من الضرائب الشخصية أو ان ما ينالهم من ذلك يسير جدًّا لاعتبارهم غير مستقرين وعملهم أقلّ عناءً وأكبر أجراً منه فى بلادهم . وليست ثروتنا وحدها هى التى تجرهم الينا بل لأن البلاد الأخرى تصدر كل حين قوانين قاضية بمنع نزوحهم اليها

ومما يزيد فى خطر غارة الأجانب أن الذين ينزلون بغير أمتهم من أحطّ الطبقات . وما تركوا بلدهم الاَّ لتعذّر المعيشة عليهم فيها . ونحن نقبلهم على الرحب عملاً بمبادىء الانسانية التى جبلنا عليها . ولذلك يزداد عددهم شيئاً فشيئاً . كانوا أقلّ من (٤٠٠,٠٠٠) منذ أربعين عاماً فبلغوا الآن (١,٢٠٠,٠٠٠)

وصنوفهم تكثر فى كل يوم . ولو نظرنا الى عدد التليانيين من بينهم لقلنا ان مرسيليا مستعمرة تليانية بل ليس للدولة الايطالية مستعمرة يبلغ عدد سكانهـا التليان عدد من يقيم منهم فى تلك المدينة . واذا لم تتغير هذه الحال وتقف حركة الهجرة يصبح سكان فرنسا فى زمن قريب ثلثهم من الألمانيين وثلثهم من التليانيين . فماذا يكون من أمر وحدة الأمة بل من وجودها فى مثل هذه الأحوال . ان أكبر مصائب الحرب أهون عليها من نتائج ذلك وأخف ضرراً [1] . لقد كان للأمم الغابرة إلهام صادق فى نفورهم من الأجنبى لأنهم كانوا يعلمون أن قيمة الأمة بالوطنيين من أهلها لا بعدد سكانها

ومن ذلك يتبين لنا أن أس الأسس فى جميع المسائل التاريخية والاجتماعية مشكلة العناصر فدونها كل مشكلة سواها

---

(١) ليس فى قدرة الأمم منع هذه الغارات لأنها مسببة عن مسائل اقتصادية لاحيلة للناس فيها الا أنه في الامكان اتخاذ بعض الوسائل لاعاقة نموها كتقرير الخدمة الاجبارية في الجندية بالألايات الاجنبية على كل أجنبي له في البلد سنتـان ولا يبلغ عمره خمساً وعشرين سنة وفرض البدل النقدى على من زاد سنة عن ذلك والغاء التجنس الغاءً باتا الا استثناء وربط ضريبة ربع الايراد أو الأجور على كل أجنبي تجنس بالجنسية الفرنساوية أم لم يتجنس وكان مقيما في البلاد منذ أقل من خمسين سنة . والنائب الذى يتمكن من التصديق على مثل هذا القانون يستحق أن يقام له تمثال لتخليد ذكره

الباب الرابع

كيف تتحوَّر الصفات النفسية للأمم

الفصل الأوّل

أثر المبادئ فى حياة الأمم

فى أن المبادىء التى تدور عليها حضارة الأمة قليلة العدد — فى أن تولدها بطئ وكذا زوالها — فى أنها لا تؤثر فى سير الأمة الا بعد أن تصير من المشاعر — في أنها تكون اذ ذاك جزءًا من الخلق — في أن بطء تطور المبادئ هو السبب في بقاء الحضارة زمناً ما — كيف تستقر المبادىء — في أنه لا تأثير للعقول فى ذلك — تأثير التوكيد والنفوذ — تأثير أهل الاعتقاد والرسل — تشويه المبادىء بانتشارها بين الجموع — فى أن المبدأ متى استقر أحدث لساعته تأثيراً فى جميع عناصر المدنية — فى أن الفضل فى وحدة النظر عند أهل كل زمان وحدة وسط تجعلهم متشابهين فى تصوراتهم وأعمالهم راجع الى وحدة المبادىء فيهم — تأثير العادة والرأى السائد — فى أن وطأة هذا الأثر لا تخف الاّ فى أوقات المحنة عندما تفقد المبادئ القديمة قوتها ولا يستعاض عنها — فى أن زمن الوحدة هو الذى يتيسر فيه البحث فى الآراء — فى أن المذاهب لا تدوم الاّ بشرط عدم البحث فيها — فى أن الأمم اذا غيرت مبادئها ومذاهبها اضطرت الى تغيير حضارتها

بعد أن بينا أن الأخلاق النفسية للأمم ذات ثبات مكين وأن تاريخ الأمم راجع الى هذه الأخلاق قلنا ان العناصر النفسية قابلة للتغير على مر الأيام وتعاقب الوراثة كالعناصر الجسمانية سواء بسواء. ونقول الآن ان هذا التغير أهم الأسباب فى تطوُّر المدنية

وأسباب التغيرات النفسية كثيرة . منها الحاجة والتنافس فى العيش . وتأثير البيئات . وتقدم العلوم والصناعة والتربية والمعتقدات وغير ذلك . وقد نشرنا قبل الآن كتاباً شرحنا فيه شأن كل واحد من هذه المؤثرات فلا محلّ هنا للإسهاب فى هذا الموضوع (١) . وانما نختار البعض من هذه العوامل لنبين وجه فعلها وهو ما سنقرره فى هذا الفصل وما يليه

يرشدنا النظر فى حضارات الأمم التى دوّنت فى التاريخ منذ القدم أن رقيها كلها كان وفقاً لمبادئ قليلة العدد ولو أن تاريخ الأمم اقتصر على تاريخ هذه المبادئ لما بلغ من الطول

---

(١) الانسان والجمعية من حيث الأصل والتاريخ جزء (٢) مبحث تطور الجمعيات البشرية

ما قد بلغ . فان الحضارة التى يتولد عنها مدى قرن بأكمله مبدأ واحد أو مبدآن أساسيان فى عالم الفنون أو العلوم أو الآداب أو الفلسفة تعدّ من أبهى الحضارات وأرقاها

ولا يظهر للمبادئ تأثير حقيقى فى روح الأمة الا اذا اختمرت على مهل ونزلت من أعالى النظر العقلى الى عالم المشاعر المستقرّ اللاتنبهى حيث تتكوّن دواعى الحركة الإنسانية . اذ ذاك تصير المبادئ جزءًا من الخلق ويكون لها تأثير فى الحياة . لأن الخلق يحتاج فى تركيبه الى تراكم طبقات من الأفكار اللاتنبهية

اذا اختمرت المبادئ على هذا النحو أصبح أثرها شديداً جداً لأنها تفلت حينئذٍ من تحكم العقل فيها . ألا ترى أن ذا اليقين الذى استولى على قلبه مبدأ دينى أو غير دينى بعيد عن التأثر بالمعقول مهما كان ذكياً . وكل الذى يكون من مقدوره — والغالب أنه لا يحاول ذلك — هو تلمس الحيل العقلية والقلب والإبدال توصلاً الى ضم الرأى الذى يعارض به الى الرأى الذى تمكن منه

واذا ثبت أن المبادىء لا تؤثر فى الحياة الاّ اذا انتقلت

من عالم الشعور الى عالم اللاشعور تبين السبب فى بطء تغيرها . ووضحت العلة فى أن الذى تبنى عليه الحضارة منها قليل . وأنه لا بدّ من زمن طويل لتطورها . وعلينا أن نسر بأن هذا هو الواقع والاّ لما كان للحضارة أن تحيي طويلاً . كذلك من حسن الحظّ قابلية المبادىء الجديدة للاستقرار اذ لو دامت المبادىء القديمة مدى الدهر لاستحال أن ترقى الحضارة أبداً . وبطء تطور المعقولات هو السبب فى أنه يلزم لاستظهار المبادىء الجديدة عدة أجيال كما أنها لا تزول الاّ بعد أجيال عدّة . وأرقى الأمم حضارة هى التى تيسر لها أن تمسك مبادئها الأساسية على بعد واحد من التغير والجمود . اما الأمم التى لم يكن لها هذا الحظّ فبادت والتاريخ يذكر بقاياها

وعلى ذلك يتجلى لنا بالسهولة أن كثرة المبادىء وقرب عهد ظهورها ليس هو الذى يستوقف النظر فى تاريخ الأمة بل على الضدّ قلتها المتناهية وبطء تحولها وشدّة تأثيرهـا . فالحضارة بنت بعض المبادىء الأساسية تبقى ببقائها وتتغير بتغيرها . قامت حيـاة العصور الوسطى على مبدأين المبدأ

الدينى ومبدأ حكم الأشراف . والى هذين المبدأين ترجع فنون تلك الأزمان وآدابها ونظرها فى الحياة على الإطلاق . ثم طرأ على هذين المبدأين بعض التغيير زمن (النهضة) . ومنذ تجدد خيال العصر الاغريقى الرومانى وتمكن من عقل أوروبا بدأ التطور فى تصور الحيـاة وفى الفنون والفلسفة وصناعة الأدب . ثم تداعت قوّة السنّة السالفـة وصارت الحقائق العقلية تحلّ محل الحقائق النقلية . فتطوّرت الحضارة تطوُّراً جديداً والظاهر أن المبادىء الدينيـة فقدت الآن القسم الأكبر من سلطانها فوهنت قوائمها وأصبحت جميع النظامات الاجتماعية التى كانت مرتكزة عليها مهددة فى وجوهها

يجب أن نكثر الأمثلة للأتيان على تاريخ تكوين الأفكار وتمكنها واضمحلالها وتغيرها وزوالها . ولو أتيح لنا الدخول في الجزئيات لبيناً أن كل عنصر من عناصر المدنيـة كالفلسفة والدين والفنون والأدب وهكـذا يرجع الى عدد يسير من المبادىء الأساسية البطيئة النموّ . ولا تشذ العلوم ذاتها عن هذه القاعدة . فعلم الطبيعة قائم الآن على مبدإ عدم انعدام القوة . وعلم الطب قائم على مبدأ أصغر ما خلق .

وتاريخ هذه المبادىء يدل على أنهـا لا تستقرّ الاّ بالصعوبة روبداً رويداً مع كونها من أبحاث العقول المستنيرة . ومع أن كل شيء يسير على عجل في هذا العصر وأنه لا تأثير للشهوات ولا للمنافع فى البحاثين وأهل النظر . يحتاج المبدأ العلمى الأساسى الواحد الى خمسة وعشرين عاماً حتى تتجلى غوامضه ويأخذ قراره . ولم يمض زمن أقل من هـذا فى تقرير أوضح المبادىء وأقلها عرضة للخلاف كمبـدأ الدورة الدموية

وجميع المبادىء متحدة فى كيفيـة التكوين والظهور لا فرق فى ذلك بين المبدأ العلمى والمبدأ الفلسفى أو الفنى أو الأدبى أو غيره . يعتنق المبـدأ فى أول الأمر عدد قليل من المبشرين به ثم الذين يعظم نفوذهم بما هم عليه من قوة اليقين أو بما لهم من المكانة الرفيعة . وينتشر أثرهم بالإلقاء أكثر مما ينشر بالتقرير لأن عناصر الاقناع الحقيقية ليست فى قوة البيان . وانما يدين المخاطب لرأى المتكلم لنفوذ الثانى أو لكونه يوجه الخطاب الى ما يشتهى الأول . ولكنه لا يؤثر فيه أقل تأثير اذا وجه خطابه للعقل وحـده . فلا تتأثر الجماعات خاصة

بالتقريرات ولكنها تتأثر بالتوكيدات . وقوة التوكيد تابعة لنفوذ مقدمها

ومتى نجح المبشرون فى اقناع من حولهم كان لهم منهم مبشرون آخرون . اذ ذاك يدخل المبدأ الجديد فى باب البحث والمناظرة وتكون المعارضة فيه عامة فى مبدأ الأمر لأنه يصطدم بالضرورة مع أمور كثيرة ثابتة من قبل فيهتاج ذلك القائمين بالدعوة اليه لأن المعارضة تزيدهم اقتناعاً بتفوقهم على من عداهم وتكبر عزيمتهم فى الدفاع عن مبدإهم لا لمجرد كونه حقاً اذ الغالب أنهم لا يعرفون مبلغ ما فيه من الصواب . بل لأنهم اختاروه وأعلنوه . هنالك يشتدّ التجاذب فيه . ومعنى ذلك فى باطن الأمر أن الدعاة يقبلون المبدأ على علاته والآخرون يرفضونه كذلك . ويكثر النفى والتوكيد بين المتجاذبين وتقلّ البراهين لأن أسباب قبول مبدأ أو رفضه عند أغلب العقول راجعة الى الشعور وهو لا يتأثر بالبرهان الاّ قليلاً

وبينما الجدل يزداد احتداماً ينمو المبدأ الهوينا وتميل اليه النابتة لعلة أنه غير متفق عليه لأن الشباب ولوع بالاستقلال

وأخص ميوله معارضة المبادىء التى درج القوم عليها . وهكذا يتدرج المبدأ فى النمو ولا يلبث أن يستغني بذاته عن النصراء فيأخذ فى الانتشار بمجرد عدوى التقليد وهى ملكة شائعة بين الناس جميعاً بدرجة عاليـة كما هى فى آبائهم من القردة بشهادة العلم الحديث

متى دخل المبدأ الجديد فى دور الانتشار بعامل العدوى فقد دخل فى دور النجاح . وسرعان ما يقبله الرأى فيكون له من ذلك قوة دقيقة نفاذة ترسله الى العقول شيئاً فشيئاً ، وتبنى له فيها بيئة خاصة وتوجد له ملكة يسكنها . ويصير كأنه العثير دقّ فانساب فى جميع التصورات وتخلل كل ما يصنع فى عصره الى أن يصير هو وآثاره جزءًا من المورثات العادية التى يخضع لحكمها بالتربية وبذلك يتمّ له الفوز ويلتحق بالمشاعر فتكون له درعاً يقيه دهراً طويلاً

ومن المبادىء التى يقوم عليهـا بناء الحضارة ما تبقى مزيته للطبقات الراقيـة كالتى تقوم بها الفنون أو الفلسفة . ومنها ما ينزل حتى يبلغ أسفل الطبقات كالدين والسياسة على الأخص ولكنهـا لاتهبط الى هذا الحدّ الاّ مشوهة جداً

واذا بلغته عظم تأثيرها فى النفوس الساذجة التى لا قبل لها على البحث فيها . هنالك يكون المبدأ علماً على أمر لا سبيل الى مقاومته . وتتدفق آثاره بعنف كأنها السيل ضعفت السدود عن ردّه . ومن السهل أن يجد الانسان فى كل أمة مائة ألف رجل يقدمون أنفسهم ضحية لمبدأ تمكن من نفوسهم . حينئذ تظهر الحوادث الجسام التى تغير وجه التاريخ . ولا يقدر على القيام بها الاّ الجماعات فما الأدباء ولا أهل الفنون ولا الفلاسفة هم الذين رفعوا راية الأديان التى دانت لحكمها الدنيا وشادوا الممالك التى امتدّ سلطانها من وجه الكرة الى وجهها الثانى وأحدثوا الثورات الدينية والسياسية التي قلبت كيان أوروبا . بل الذين فعلوا ذلك هم الجهلاء الذين اشتدّ تمكن المبدأ فى نفوسهم فهانت عليهم فى سبيل نصرته . بهذه العدّة الضئيلة نظرياً القوية فعلاً فتح رحّل صحارى بلاد العرب قسماً من الدنيا الاغريقية الرومانية وشادوا دولة من أضخم الدول التى ورد ذكرها فى التاريخ وبمثل هذه العدة الأدبية أعنى سلطان المبدإ على النفوس وقف جند (العهد) البواسل فى وجه أوروبا بأجمعها

للاعتقاد قوة لا يغلها الاَّ قوة اعتقاد مثلها . فليس للإيمان عدو الاَّ الإيمان . والنصر حليفه متى كانت القوة المادية التى تعترضه خادمة لشعور ضعيف ومعتقدات تولاها الوهن . لكن اذا اصطدم بايمان يماثله فى قوته أصبح الحرب عواناً وصار النصر منوطاً بالأحوال الثانوية التى تكتنف الغالب منهما وأهمها ما كان راجعاً الى قوة الخلق وتعود الانقياد وحسن النظام . واذا تأملنا تاريخ العرب أيام فتوحاتهم الأولى — وأول الفتوحات أصعبها فى العادة وأهمها — رأينا أنهم وجدوا أمامهم خصوماً ضعفت أخلاقهم الأدبية وان كان نظام جنديتهم محكماً . تقدَّمت جيوشهم أولاً الى البلاد السورية فلم يجدوا فيها الاَّ جيشاً بيزنطياً مؤلفاً من الأجراء الذين ليس لهم ميل الى تضحية أنفسهم فى سبيل غرض ما . وكانت شدة ايمان العرب تزيد قوتهم العددية عشر أمثالها فلم يعانوا فى تمزيق شمل تلك الجيوش التى لم يكن لها خيال تقاتل من أجله وكذلك استطاع نفر قليل من الاغريق تمكن منهم حب المدنية من تشتيت شمل جيوش (اكزرسيس) العظيمة . وكانوا يعجزون وتتغير نتيجة الحرب لو أنهم اشتبكوا قبل ذلك

يبضع قرون مع الجيش الرومانى . فمن الواضح أنه اذا التقت قوتان أدبيتان متساويتان كان الفوز لأحكمها نظاماً . لذلك غلبت جيوش أهل (العهد) الفرنساوية جنـد (الڤندان) لتساوى الفريقين فى قوة الاعتقـاد وتفوّق الأولين فى حسن النظام

ومن هنا يتبين أن النصر على الدوام حليف المؤمنين . لا فرق فى ذلك بين السياسة والدين . واذا ظهر الآن أن المستقبل للاشتراكيين رغم فساد مذهبهم فساداً مريعاً فذلك لأنه ليس من صح اعتقاده فى هذا الزمان غيرهم . أما الطوائف التى بيدها زمام الأمم فى عصرنا فانها فقدت اليقين فى كل شئ حتى فى مقدرتها على الدفاع عن نفسها من سيول البربر التى تكتنفها من كل جانب

متى قطع المبدأُ أدوار التعثر والتحوُّر والتغير والجـدل والانتشار واستقرت صورته الأخيرة ودخل فى روح الجموع صار عقيدة أعنى حقيقة مطلقة لا يتطرق اليهـا الشك ولا جدال فيها . وانضمّ بذلك الى المعتقدات العامة التي تقوم بها حياة الأمة . وعمومه يجعله ذا شأن ممتاز من حيث التأثير فى

النفوس . أنك لتجد أزمان التاريخ العظمى كعصر (اغسطس) وعصر (لويس الرابع عشر) هى التى خلصت فيها المبادئ من أدوار تكوينها واستقرت بعد أن بطلت المناظرة عليها وتمت لها السيادة على الأفكار . هنالك تصير المبادئ منارات تصبغ بألوانها الضوئية كل ما أشرقت عليها

متى انتصر مبدأ جديد ظهر أثره ـــ فى عناصر المدنية كبيرها وحقيرها . ولكنهُ لا يحدث أثره كله الا اذا دخل فى روح الجموع . فهو ينزل من العقول السامية التى ظهر فيها الى الطبقة التى تليها ثم الى التى بعدها متحوّراً متغيراً حتى يكتسى حلة تحله من نفوس الجموع محلاً مقبولاً . وهناك يتمّ له الفوز . واذ ذاك يصاغ فى كلمات وجيزة . وربما صيغ بكلمة واحدة تثير فى الخيال صوَراً قوية أخاذة أو مريعة لكن مؤثرة على كل حال . مثل ذلك الجنة والنار فى القرون الوسطى . كانا لفظين قصيرين وكان لهما قوة سحرية تفعل فى كل شئ وتفسر للنفوس الساذجة كل شئ . ولكلمة (اشتراكية) فى مخيلة العملة فى هذا العصر صورة ساحرة جامعة ذات قوة تأخذ بمجامع النفس وهى تثير صوَراً مختلفة بحسب الجموع

التى تنتهى اليها وكلها مؤثرة جداً رغم سذاجتها

تمثل كلمة (اشتراكية) فى ذهن النظرى الفرنساوى صورة جنة تساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة فى ظل الحكومة. وتمثل للعامل الألمانى حانة طبق دخانها وطفق رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقاً من لحم الخنزير والكرنب المملح ودناناً من الجعة . ومن المعلوم أن كلا الرجلين حالِم المساواة وحالِم الكرنب لم يلتفت أبداً الى معرفة مقدار المقسوم ولا الى عدد المقتسمين . ذلك لأن أخص صفات المبدأ اذا ثبت أنه يأخذ حيزه بصورة مطلقة لا يؤثر فيها النظر ولا يضعفها الاعتراض

اذا تم استقرار المبدأ رويداً رويداً حتى صار عقيدة كان فوزه طويل الأمد وحبط كل دليل يقام لزعزعته . نعم مصيره أن يناله ما نال المبدأ الذى حل هو محله فيهرم ويتداعى ولكنه لا يبلغ درجة البلى الاَّ بعد أن يقطع فى تقهقره أدواراً من التغير والمسخ . وذلك لا يتم الاَّ في عدة أجيال . ويكون قبل موته قد عاش دهراً منضماً الى المبادىء القديمة الموروثة التى يعبر عنها بالأوهام ويحترمها الناس رغم ذلك فالمبدأ القديم

سلطان على النفوس يبقى وان جرد اسمه من معناه وصار صوتاً لا مردّد له فى القلوب

وهكذا يدوم كل ما تقادم عهده من تراث الآراء والاتفاقات أي المألوفات التى يكاد المرء يعبدها احتراماً . وهى لا تحتمل النقد لحظة واحدة لو أنا هممنا بالبحث فيها . ولكن القليل من الناس يجرأ على البحث فى أفكار نفسه كما أن قليلاً من الأفكار يبقى اذا تناوله أقل بحث سطحى

الأولى أن لا يقدم المرء على هذا البحث المخيف . ومن حسن الحظ أنه بعيد عنه . لأن النقد ملكة راقية نادرة جداً . والتقليد ملكة شائعة جداً . ولذلك نرى جمهور الناس يقبلون المبادئ كما تأتيهم على علاتها بمحض شيوعها أو من طريق التربية . ومن هنا اشترك السواد الأعظم من كل أمة وكل زمان فى حد وسط من التصوّرات والمعقولات فأشبه بعضهم بعضاً شبهاً قوياً حتى أن الناظر الى فنونهم وآدابهم وفلسفتهم يعرف منها الزمن الذى عاشوا فيه وان بعد دهر مديد . وعلة ذلك التشابه القوى ما تناقله الخلف عن السلف بالوراثة والتربية والبيئة والعدوى والآراء . نعم ليس الخلف

صورة تامة للسلف . الاَّ أن الذى اتحدا فيه هو كيفية تصوُّر المعقولات والمحسوسات وذلك يؤدى بالضرورة الى نتائج متشابهات

ولنا أن نسرّ من هـذا . لأن روح الأمة انما يتكوَّن من مجموع تلك التقاليد والمشاعر والمبادئ والمعتقدات وكيفية تصوُّر المعقولات . وقد علمنـا أن قوة هذا الروح من قوة ذلك المجموع وهو الذى تدوم بدوامه الأمم . فاذا ما اعتراه الانحلال تقوض بنيانهـا فهو قوتها الحقيقيـة وهو سيدها الحقيـقى . كثيراً ما مثلوا ملوك البلاد الأسيوية مستبدين مبادئهم أهواءهم . على أن تلك الأهواء محصورة في دائرة لا تخرج عنها لأنك لا ترى قوة المجموع التى أشرنا اليها أشدّ منها فى بلاد الشرق . فالتقاليد الدينية التى اهتزت أركانهـا عندنا لا تزال على متانتهـا الأولى عندهم . وأكبر المستبدين عتواً لا يصادم عندهم هذين السيدين الرأى والسنة . لأنه يعلم حق العلم أنهما أشد بأساً منه وأعظم سلطاناً

اليوم يوجد الرجل المتحضر فى عصر من أشد أدوار التاريخ محنة . دور لا تزال المناظرة دائرة فيه على المعتقدات .

لأن المبادئ القديمة التى تشتق منها الحضارة فقدت نفوذها ولما تستقرّ المبادئ الجديدة . اليوم لا يدرى الانسان مقدار أخذ الرأى والعادة من النفوس ولا الذى كان يلقاه المبدع من وراء تهجمه على هاتين القوتين . ولكنه يعرف ذلك اذا رجع الى تاريخ الحضارات القديمة أو الى ما كان منذ قرنين أو ثلاثة

يروى لنا بعض الجهلاء من القصصين أن الاغريق كانوا أحراراً وما كانوا الاّ عبيداً للعادة والاعتقاد . كان يحيط بالواحد منهم دائرة من المعتقدات يقدسها . وما كان يخطر لأحد أن يجادل فيما جرى عليه قومه . بل كان لذلك خاضعاً مستسلماً . وما عرفت الدنيا الاغريقية الحرية الدينية ولا حرية الحياة الذاتية ولا الحرية من أى نوع . بل أن شرائع (آثينا) ما كانت تبيح للوطنى أن يعيش بمعزل عن الجماعة . ولا أن يمتنع عن اقامة حفلات الأعياد الوطنية كما يقيم الصلاة . وما كانت حرية الأزمان الأولى الاّ خضوع الرجل لنير مبادىء البلد التابع له خضوعاً تاماً لبلوغها فيه درجة المشاعر اللاتنبهية . ولو أتيح لأهل بلد أن يكونوا أحراراً فى أفكارهم

لما عاش هذا البلد يوماً واحداً بين تلك الجموع التى كان وجودها قائماً على حرب مستمر . ولم يبدأ دور انزواء الآلهة والنظامات والمذاهب الاّ من اليوم الذى جاز فيه النظر فيها

أما فى حضارة هذا العصر فقد تهدمت على التقريب المبادىء التى كانت تستمد منها قوة العادة والمعتقد . فضعف لذلك أثرها فى النفوس . ودخلت فى دور البلاء الذى تصير فيه المبادىء القديمة أوهاماً . وما لم يحلّ محلها مبدأٌ جديد فالفوضى حليفة الأفكار . ولهذه الفوضى فضل هو احتمال الجدل والمناظرة . فعلى الكتاب والفلاسفة والمفكرين أن يشكروا هذا الدور وأن يسارعوا بالاستفادة منه لأنهم لن يروه ثانياً متى انقضى. قد يعتبر هذا الدور دور تقهقر وسقوط الاّ أنه دور يتمتع العقل فيهِ بالحرية التامة . فهو لذلك لا يحتمل الدوام طويلاً . لأن أحوال الحضارة الحاضرة تشعر بان الأمم الأوروبية سائرة الى دور لا يقبل الجدل ولا يحتمل الحرية وسببه أن المذاهب الجديدة لن يثبت قدمها الاّ اذا حظر البحث فيها وأصبحت كالتى سبقتها لا تطيق المعارضة

لا يزال الإنسان فى هذا الزمان يبحث عن المبادىء التى

يشاد عليها بناء الاجتماع فى المستقبل وهـذا هو الخطر الذي يتهدده . لأن أهم شىء فى تاريخ الأمم وأكبر مؤثر فى حياتها هو تغير المبادىء الأساسية لا الثورات ولا الحرب اذ من السهل اصلاح ما أفسدته . ومن لوازم هذا التغيير تغيير جميع عناصر المدنية فالثورة الوحيدة التى يخشى منها على حياة الأمم هى التى تحدث فى الأفكار

ليس الخطر فى اعتناق الأمة مبدأ جديداً بل الخطر الأكبر فى اضطرارهـا الى الانتقال من مبدأ الى مبدأ حتى تعثر على الذى يصلح أساً يقام عليـه بناؤها الجديد . كذلك ليس الخطر فى كون المبدأ غير صواب . فقد كانت المبادىء الدينية التى عشنا عليها حتى الآن خطأ . بل هو فى التجارب العديدة التى لا بدّ منها لمعرفة ملائمة المبادىء الجديدة لأحوال الأمة التى تحاول العمل بها . ذلك لأن الجموع لا تشعر لسوء الحظ بفوائد هـذه المبادىء الاَّ بالتجربة ، نعم لا حاجة لأن يكون الانسان ضليعاً من علم النفس ولا من علم الاقتصاد لينبىء بأن العمل بمقتضى مبادىء الاشتراكية الحاضرة يفضى بالأمم الى أرذل درك الانحطاط وأخزى صور الاستبداد .

لكن أين السبيل لمنع الأمم وقد افتتنت بتلك المذاهب من قبول ذلك الانجيل الجديد

لقد علمنا التاريخ ما ينجم عن الدعوة الى الأفكار فى زمان لم يتهيأ أهله لقبولها . ولكن الإنسان لا يلتمس العبرة من التاريخ فقد حاول (شارلمان) أن يعيد الدولة الرومانية الا أن مبدأ الوحدة لم يكن ميسوراً تحققه فمات عمله بموته . وكذلك كان شأن (نابليون) . واستنفد (فيليب) الثانى حدة ذهنه وسلطان اسبانيا وكانت لها السيادة بين الأمم فى مقاومة حرية البحث التى كانت تنتشر فى أوروبا باسم (البروتستنتية) فلم يفلح . وكانت عاقبة هذه المقاومة وقوع اسبانيا في خراب وانحطاط لم تقم لها من بعده قائمة . وفى عصرنا هذا قام متهوّس على رأسه تاج يدعو الى مبادئ وهمية مدفوعاً بذلك الشعور الفاسد الذى امتازت به أمته يريد توحيد الأمم المتحدة فى الجنس . فكان من وراء ذلك وحدة المانيا ووحدة ايتاليا وضياع أقليمين من أملاكنا وانزوائنا الى أمد بعيد . افتتنت الأمم بمذهب فاسد . فقالوا قوة الجند فى كثرة العدد ونشروا على القارة الأوروبية بساط حرس

شاكى السلاح . وعاقبة ذلك الإفلاس لا محالة . ولو أن هذه الجيوش الجرارة الدائمة أبقت لها بقية من المال والوحدة والسلطان فسيأتى عليها مذهب الاشتراكيين فى العمل ورأس المال وإبطال حق الملكية الشخصية واقامة الملكية العامة مقامها

من المبادئ الفعالة فى أحوال الأمم مبدأ الجنسية . كان السياسيون قديماً يكبرون شأنه ويجعلونه قطب دائرة سياستهم وكان له الأثر السيئ فان أوروبا وقعت بسبب طموحها الى تحقيقه فى أشدّ الحروب ضرراً وجعلها تبيت متأبطة سلاحها . وسيقودها جمعاء الى الدمار والفوضى . والسبب الوحيد الظاهر الذى كانوا يدافعون به عن هذا المبدأ هو أن أقوى الأمم وأبعدها عن الخطر أكبرها وأكثرها أهلاً . ومع ذلك كانوا يتهامسون بأن مثل هذه الأمم أسهل فتحاً وأقرب منالاً . وقد ظهر الآن أن أصغرها وأقلها عدداً كالبرتغال واليونان وسويسراً وبلجيكا وأسوج وأميرات البلقان أبعد عن الخطر . لقد كان مبدأ الوحدة سبب خراب ايتاليا . وكانت زاهرة فأصبحت على شفا جرف الثورة والإفلاس . اذ بلغت ميزانية جميع ولاياتها مليارين . وكانت قبل الوحدة

التليانية لا تبلغ (٥٥٠) مليوناً

لكن ليس فى طاقة الإنسان أن يوقف تيار الأفكار بعد أن تتصل بالنفوس . ولا بدّ لها من اكمال دورتها . وحماتها فى الغالب هم الذين أعدهم القدر ليكونوا أول ضحاياها . وليس الا الغنم تمشى طائعة خلف الدليل الذي يقودها الى المذبحة . فعلينا أن نحنى الرؤوس أمام المبدأ لأنه متى بلغ فى تطوره درجة معلومة لا ينفع فيه برهان ولا يستظهر عليه بيان . ولا تتخلص الأمم من ربقة مبدأ استولى على قلبها الاَّ بمرور الدهور أو بعنف الثورة . وقد يكون الاثنان لازمين . وما أكثر الأوهام التى افترضها الانسانية فافترستها على الدوام

الفصل الثانى

تأثير المعتقدات الدينية في تطوُّر المدنية

فى رجحان تأثير المعتقدات الدينية – فى أنها كانت على الدوام الركن الأكبر فى حياة الأمم – فى أن أكثر الحوادث التاريخية والنظامات السياسية والاجتماعية مشتقة من المبادىء الدينية – فى أنه يتولد مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة – فى قوة الخيال الدينى – أثره فى الخلق – فى أنه يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد – في أن تاريخ الأمم السياسى والفنى والأدبي متولد من معتقداتها – فى أن أقل تغيير فى المعتقدات الدينية يحدث تقلبات كبيرة فى حياة الأمة – أمثلة شتى

أهم المبادئ التى تسير عليها الأمم وتعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة المبادئ الدينية فلها من الشأن ما يجعلنا نفرد للكلام عليها فصلاً مستقلاً

كانت المبادئ الدينية على الدوام أهم عنصر فى حياة الأمم وهى لذلك أهم عنصر فى تاريخها . فأكبر حوادث التاريخ التى أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها .

وأول المسائل الأساسية فى الأزمان الغابرة وفى الأزمان الحاضرة المسائل الدينية . ولو أن الانسانيـة رضيت بموت جميع آلهتهـا لكان هذا الحادث أعظم الحوادث التي تمت فوق وجه الأرض منذ ظهرت المدنيات الأولى

لا ينبغي لنـا أن ننسى أن جميع النظامات السياسية والتدبيرات الاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية . وأن الآلهـة هى التى لعبت أكبر دور فى الحياة الإنسانيـة . وأن الدين أسرع مؤثر فى الأخلاق لا يدانيه مؤثر اللهم الاّ الحب . والحب دين . الاّ أنه دين ذاتي غير دائم . واذا أردت أن تعرف على أى حال تكون الأمـة التى اهتاجها خيالها فانظر الى فتوحات العرب والحروب الصليبية والاضطهاد الأندلسى وحال انكلترا أيام (البوريتيين) و (سانت بارتلمي) فى فرنسا وحروب الثورة الفرنساوية . الاّ أن للأوهام سحراً مستمراً شديد التأثير يتغير به المزاج العقلى تغيراً كلياً . خلق الإنسان الآلهة ولكنهـا ما لبثت أن استعبدته . وانهـا بنت الأمل لا بنت الخوف كما وصفها (لوقريس) لذلك كان تأثيرها سرمدياً . لقد كان من تأثيرها

فيه أن جعلت عقله متشبعاً بفكرة السعادة فامتازت بذلك على كل مؤثر سواهـا ، وقصرت الفلسفة عن ادراك هـذه الغاية حتى الآن

نتيجة كل حضارة ان لم نقل غايتهـا وكل فلسفة وكل دين تكوين حالات عقلية خاصة بعضهـا يقتضى السعادة وبعضها لا يقتضيها . وترجع السعادة الى أحوال النفس أكثر مما ترجع الى الأحوال الخارجة عنها . فلربمـا كانت الضحايا فوق مواقدها أسعد من قاتليها . وكم فالح أرض بيديه يقضم الكسرة مفروكة بالتوم أسعد بكثير من موسر متدفق الثروة تكاثفت حوله الهموم

ومن دواعى الأسف أن الحضارة فى هذا الزمان خلقت للإنسان جمعاً من الحاجات ولم تعطه وسائل دفعها فتولد من ذلك عدم الرضاء فى النفوس . قالوا الحضارة بنت الرقى . نعم وهى أم الاشتراكية وأم الفوضى . وهما صوتان مريعان تصيح بهما جموع قلّ ايمانها فاستولى اليأس على قلوبهـا . أين حال الأوروبى الذى تولاّه القلق وهاجت أعصابه وأصبح غير راضٍ بحظه من حال الشرقى الراضى بما قدر له . انمـا الفرق

بينهما فى حالة النفس دون سواها . وانما يغير الأمة من يغير من تصورها ويجعلها تفكر وتعمل غير ما عملت

يجب على الهيئة أن تسعى فى ايجاد حال عقلية يكون فيها الفرد سعيداً والاَّ فأجل الأمة قصير . فما قامت الأمم حتى الساعة الاَّ متكئة على خيال فيه قوة اجتذاب النفوس وما سقطت واحدة منها الاّ بزوال سلطان هذا الخيال

من أكبر خطأ هذا الزمان اعتقاد الناس أن النفس تجد السعادة فى الأشياء الخارجة عنها . قل ان السعادة فينا ونحن الذين نوجدها . وشذ ما كانت بعيدة عنا . انا هدمنا خيال العصر الماضى فصرنا نرى أنه لا حياة لنا من بعد هذا الخيال . وانا اذا لم نوفق الى الاستعاضة عنه فإنا هالكون

أكبر المحسنين لبنى الانسان الذين يجب على الأمم أن تقيم لهم أفخم التماثيل من الذهب الوهاج هم أولئك السحرة القادرون الذين خلقوا لها الخيالات . أولئك يولدون أحياناً بين البشر ولكنهم لا يولدون الا قليلاً . أقاموا أمام سيول الآمال الفانية — وهى الحقائق التى لا قدرة للإنسان على معرفة غيرها وفى وجه هذه الدنيا العبوس الجامدة — حجاباً

من الأوهام القوية فسروا عن الإنسانية وستروا ما فى الحياة من غضاضة ومضض وخلقوا جنات النعيم فنيط بها الرجاء وتوالت الأحلام

واذا رجعنا الى الجهة السياسية علمنا أيضاً كيف كان تأثير المعتقدات شديداً . والسبب فى قوة الدين العظيمة كونه العامل الوحيد الذى تتوحد به وقتاً ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها . فيقوم المبدأ الدينى بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التى يتكوّن منها روح الأمة والتى لا تنتج هذه النتيجة الا اذا أربت وتم نضجها بالوراثة . نعم لا يتغير مزاج الأمة العقلى بمجرد استيلاء دين على قلبها غير أن جميع القوى تتجه نحو غاية واحدة هى الانتصار للمعتقد الجديد وفى ذلك سر قوتها العظمى . لذلك تجد أن قيام الأمم بأعظم الأعمال كان فى عصر هذا التطوُّر الوقتى أعنى عصر تدينها . وتأسيس أكبر الممالك التى أدهشت العالم كان فى عصر تدينها . كذا اتحدت بعض قبائل العرب بفكرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الأسماء . وشادوا تلك الدولة الكبرى

والذى يجب الالتفات اليه قوة تمكن المعتقد من النفوس لا حقيقة هذا المعتقد . لا فرق بين أن تكون الدعوة للاله (مولوخ) أو لغيره ممن هو أعرق فى الهمجية . بل ربما عظم نفوذ المعبود ان كان قاسى القلب ومن المستبدين . لأن الآلهة التى تغالت فى التسامح واللين لا تشدّ عزائم عبادها . ومن أجل ذلك ساد أتباع محمد بتشدّده وامتدّ سلطانهم على قسم كبير من الدنيا زمناً طويلاً . ولا تزال لهم خشية فى النفوس . وأما أتباع (بوذا) الهادى فأنهم لم يأتوا عملاً باقياً . وقد نسيهم التاريخ

وعليه يتضح أنه كان للدين شأن كبير فى سياسة الأمم لأنه هو العامل الوحيد سريع التأثير فى أخلاقها . نعم ان الآلهة ليسوا خالدين ولكن المبدأ الدينى باق لا يزول . يغفى زماناً . ثم ينشط متى ظهر ربّ جديد . وهو الذى استطاعت به فرنسا وحدها منذ قرن أن تقاوم أوربا كلها . فعرف البشر مرة أخرى درجة تأثير المعتقدات الدينية . لأن الأفكار التى امتلكت العقول فى ذلك العصر كانت فى الحقيقة ديناً جديداً نفخ فى الأمة من روحه فأنعشها . لكن الآلهة

التى برزت من خلال تلك المعتقدات كانت لطيفة المادة فلم تدم الاَّ قليلاً على أن سلطانها مدة وجودها كان سلطاناً كبيراً

بعد ذلك نقول ان قدرة الديانات على تغيير روح الأمم قدرة فانية . فقلما تدوم المعتقدات على قوتها الأولى زمناً يكفى لتغيير الخلق تغييراً تاماً . سببه أن قوة الأحلام لا تلبث أن تفتر ويرجع المأخوذ بسكرتها بعض الرجوع الى اليقظة فتظهر حقيقة الخلق العتيق

يظهر على الدوام خلق الأمـة حتى وسلطان الدين فى منتهى شدته فتراه فى الصبغة التى انصبغ بها الدين عند الأمة التى اعتنقته . وفى المظاهر التى تنشأ عنه . انظر الى الفرق العظيم بين المعتقد الواحد فى انكلترا واسبانيـا وفرنسا تجد أنه كان من المستحيل ظهور (البروتستنتيـة) فى اسبانيا ولا أن ترضى انكلتره باقامة الاضطهاد (محكمة التعذيب) بين ربوعها بل تأمل حال الأمم التى دانت بالبروتستنتية تظهر لك أخلاقها الأساسية الأولى بادية عليها وأنها بالرغم من افتتانها بمعتقدهـا لا تزال محتفظة بميزات مزاجهـا العقلى أعنى الاستقلال ومضاء العزيمة وتدبر الأمور قبل الأخذ بها وإباء

الخنوع والاستذلال لسيّد يصدر فى أمره عن الهوى

يتولد تاريخ الأمم السياسى والأدبى والفنى من معتقداتها الاَّ أن هذه كما تؤثر فى الخلق تتأثر أيضاً به . فمفاتيح حياة الأمة خلقها ودينها . والأول دائم من حيث صفاته الأولى وعدم تغيره هو السبب فى وحدة تاريخ كل أمة واطراده . أما المعتقدات فقابلة للتغير . وتغييرها هو السبب فى أن التاريخ يحكى كثيراً من الانقلابات فى الأمم

أقل تغيير يطرأ على معتقدات الأمة يجر وراءه تغييرات عدة بعضها أثر بعض وقد قدمنا فى الفصل السابق أن أهل فرنسا فى القرن الثامن عشر كانوا يخالفون جداً فى الظاهر أهلها فى القرن السابع عشر . وما السبب فى هذا الاَّ أن العقل كان انتقل بين قرن وقرن من اللاهوت الى العلم . وعارض التقليد بالنظر . والحقيقة النقلية بالحقيقة العقلية . فكان هذا التغير فى التصورات كافياً وحده لإحداث التفاوت بين عصر وعصر . واذا اقتفينا آثاره رأينا أن الثورة الفرنساوية والحوادث التى تلتها ولا تزال موجودة فينا انما هى نتيجة لازمة لتطور حصل فى المعتقدات

اليوم تميل الأمم القديمة الى السقوط . فهى تهتز من الوهن . ونظاماتها تتداعى واحداً إثر واحد . وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئاً من ايمانها الذى قامت عليه حتى الآن . فاذا فقدته كله قامت حتماً مقامه حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد . لأن التاريخ يدلنا على أن الأمم لا تحيي طويلاً بعد اختفاء معبوداتها . وأن الحضارات التى جاءت مع تلك المعبودات تذهب بذهابها . ألا لا شيء أفعل فى التخريب من أثر معبود يموت

الفصل الثالث

شأن عظماء الرجال فى تاريخ الأمم

فى أن الرقى العظيم يتم فى الأمم على يد نفر قليل من أهل العقول السامية — حقيقة شأن هؤلاء — فى أنهم يمثلون جميع مجهودات شعوبهم — أمثلة منتزعة من الاكتشافات العظيمة — شأن عظماء الرجال فى السياسة — فى أنهم موضع حلول الخيال السائد على أمتهم — تأثير عظماء المتهوسين — فى أن كبار المكتشفين يبدلون حضارة الأمة — فى أن المتعصبين والمتهوسين يخلقون التاريخ

عندما بحثنا فى تقسيم الأمم وبيان الفروق التى يختلف بها بعضها عن البعض الآخر اتضح لنا أن الفارق بين الأوروبيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء. فلنأتِ على طرف من شأن هؤلاء النبغاء

تجتمع مقدرة الشعب كلها فى هذه الطائفة الصغيرة المؤلفة من الرجال الممتازين. أولئك الذين اذا أخرجناهم من كل جيل سقط مستوى الأمة العقلى سقوطاً كبيراً. والى

هذه الطائفة يرجع الفضل فى الرقى الذى وصلت اليه العلوم والفنون والصناعة وبالجملة جميع فروع الحضارة . والتاريخ يدلنا على أنا مدينون لهذا الرهط بكل ذلك . ومع كون المجموع منتفعاً بهذا الرقى فان الناس لا يرتاحون عادة للتفوق عليهم وان كان النبوغ آتياً من بينهم . لذلك ذهب عظماء المفكرين وكبار المكتشفين ضحية غضب قومهم فى غالب الأحيان . وما درى القوم أن غرس الأجيال الماضية وثمرة ماضيها انما تنمو فى بستان تلك العقول النابغة التى هى قطوفها الدانية . أولئك هم مجد الأمم وكل فرد من أفرادها وان صغر يفخر بهم ويعتز بشأنهم . لأنهم لا يوجدون اتفاقاً ولا بمعجزة من المعجزات ولكنهم ثمرة الماضى الطويل . فيهم تمثل عظمة عصرهم ومكانة أمتهم . وكل ما ساعد على انبثاق أزهارهم فانما يساعد على انتشار الرقى الذى تستفيد منه الإنسانية . لكنا اذا تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة الا بين المنحطين وهى مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بهم وهم بأحلامهم من التعساء . انما صدقت تلك الأحلام عند المتوحشين . أما الأمم الراقية فلا

سبيل للتساوى بين أفرادها الاَّ اذا تدرجت فى اسقاط كل رفيع فيها مما تعتز به مكانتها حتى يهبط الى أسفل مستوٍ فيها

على أن شأن العظماء ليس على قدر ما هو شائع عند الناس مهما بلغ أثره فى رقى الحضارة . لأنه ينحصر كما قدمنا فى تمثيل مجهودات الأمة كلها . فاكتشافات المكتشفين ثمرة اكتشافات كثيرة سابقة . وهم انما يقيمون بناء من أحجار هندمها المتقدمون على مدى الزمان . ولكن المؤرخين ميالون بطبيعتهم الى تبسيط الأشياء . تراهم يلصقون بكل اكتشاف اسماً من الأسماء مع أنه لا يوجد بين الاكتشافات الكبيرة التى غيرت وجه البسيطة كالمطبعة والبارود والبخار والتلغراف الكهربائى ما تجوز نسبته الى رجل واحد . ومن تأمل فى تاريخ هذه الاكتشافات وجدها ثمرة أتعاب سابقة . والمكتشف الأخير انما هو شرفة ذلك البناء

كان العالم (غاليلى) أول من لاحظ تساوى تموجات المصباح المعلق فى الفضاء من حيث الزمن فمهد الطريق بذلك لاكتشاف الساعات المنضبطة انضباطاً تاماً (كرنو ومتر) ومن هنا استطاع الملاحون ايجاد ما يهتدون به فى طريقهم

فوق الماء . وبارود المدافع مأخوذ من (النار الاغريقية) المحولة تحويلاً بطيئاً. والآلة البخاريه ثمرة اكتشافات عديدة اقتضى كل واحد منها مجهودات كثيرة . ولو أن رجلاً من الاغريق أعطى فوق ذكاء (أرشميد) مائة مرة لما توصل الى اختراع قاطرة السكة الحديدية . ولو استطاع اكتشافها لما استفاد منها اذ كان يعوزه في ابرازها الى عالم التنفيذ أن يتقدم علم (الميخانيقا) الى درجة لم يصلها الاَّ بعد ألفى عام

يخيل للناس أن عظماء السياسيين غير مرتبطين برباط مع الماضى ولكنهم — في الحقيقة ليسوا أقل ارتباطاً به من المخترعين والمكتشفين . ولقد طاش نظر بعض الكتّاب مثل (هيجيل) و (كوزان) و (كارليل) وغيرهم لانبهارهم بسناء أولئك العظماء الذين يقلبون الأمم ذات اليمين وذات الشمال ويغيرون حياتها السياسية فأرادوا أن ينزلوهم منازل الآلهة الذين لهم وحدهم سلطان على مصير الأمم . لا شك أن فى استطاعة أولئك العظماء تعكير تطوُّر الأمة لكن مقدورهم لا يصل الى تغيير مجرى حياتها . وليس فى استطاعة عقل كعقل (كرمويل) أو (نابليون) أن يأتى بعمل مثل

هذا . ورب فاتح عظيم يهدم المدائن بالحديد والنار ويبيد الرجال ويخرب الممالك كما يحرق الطفل دار تحف ملئت بكنوز الفنون . الا أنه ينبغى أن لا نغترّ بهذه القوة الهادمة فنخطئ تقدير شأن أولئك العظماء . اذ ليس لأثرهم بقاء الا اذا عرفوا كيف يستخدمون مقدرتهم حيث تكون حاجات عصرهم كما فعل (قيصر) و(ريشليو) . وحينئذٍ فالسبب الحقيقى فى نجاحهم موجود قبلهم بزمن طويل . ولو ظهر الرجلان قبل عصرهما بقرنين أو ثلاثة قرون لما أُتيح للأول أن يخضع الجمهورية الرومانية العظيمة الى ارادة سيّد قاهر . ولا تمكن الثانى من ايجاد الوحدة الفرنساوية . وعليه فكبراء السياسة الحقيقيون هم الذين يمثلون حاجات الأمم التى اقتربت والحوادث التى أتم الزمان معداتها ويرشدون الى الطريق الذى يجب السير فيه . وقد يجوز أن يكون هذا الطريق مجهولاً من الجميع . ولكن الأقدار التى قضت بتطوُّر الأمة كانت لا بد أن تدفع اليه الأمم التى أخذ أولئك القادرون موقتاً بزمامها . فمثَل هؤلاء كمثَل المكتشفين يمثلون ثمرات مجهودات طويلة سابقة

لا ينبغى أن نذهب الى أبعد من ذلك فى المقابلة بين طبقات عظماء الرجال . فللمكتشفين شأن كبير فى تطوُّر الحضارة المستقبل ولكن لا شأن لهم مباشرة فى تاريخ الأمة السياسى . ذلك لأنهم من مخترع المحراث الى مخترع التلغراف ومن بينهما من أصحاب المخترعات التى يتمتع بها الناس لم يكن لهم من الصفات الخلقيـة ما يمكنهم من اقامة دين أو افتتاح مملكة . أعنى أنهم لم يكن لهم من المواهب ما يستطيعون به تغيير التاريخ تغييراً بادياً . وتجردهم من تلك الصفات آتٍ من كونهم أهل تفكير وتدقيق . والمفكر لا يجهل ما فى المفكورات من الأشكال والتعقيد . وعلمه هذا يؤثر فى يقينه فيضعف منه . ومن جهة ثانيـة تراه لا عناية له بالأطماع الا قليلاً لأن الذى يستحق ذلك منها نادر . فلا يحفل بواحد منها . والخلاصة أن المكتشفين لا يغيرون الحضارة الا مع الزمن . وأما المتعصبون ذوو العقول الضيقة الممتازون بقوة الخلق وشدة الشهوة فهم الذين يقدرون على اقامة الأديان وتأسيس الممالك وقلب نظام البشر . هذا بطرس الراهب أقام صوته ألوف الألوف ورمى بهم نحو الشرق . وهـذا صوت

محمد (صلعم) كان له من قوة التأثير ما انتصر به على الدنيا القديمة الاغريقية الرومانية . وراهب خامل الذكر مثل (لوثر) أقام أوروبا وقذفها فى بحر من النار والدماء . لكن الجموع لا تسمع صوت (غاليلى) أو (نيوتن) . والخلاصة أن عظماء المكتشفين يعجلون سير المدنية . والمتعصبون والمتهوسون يخلقون التاريخ

ليس التاريخ كما يسطرونه الاّ سرد الحوادث التى احتملها الإنسان ليخلق له خيالاً يعبده ثم يبيده . وليس لمثل هذه الخيالات قيمة فى نظر العلم الاّ كسراب الضيآء فوق الرمال المتحركة فى البيداء

لكن المتهوسين الذين خلقوا هذا السراب هم الذين قلبوا العالم رأساً على عقب . ولا يزالون يخضعون الناس لسلطانهم وهم فى القبور . ولا يزالون يعملون فى أخلاق الأمم ومصيرها . فلا ينبغى لنا أن نتجاهل شأنهم ثم لا ننسى أنهم ما قاموا بتلك الأعمال الاّ لأنهم مثلوا على غير علم خيال أممهم وعصورهم فلا حول لرجل فى تحريك أمة الاّ اذا تمثل أحلامها تمثل موسى حاجة اليهود الى الخلاص بعد أن اختمرت

فى قلوبهم منذ سنين قضوها عبيداً ترهق أجسامهم سياط المصريين . وأدرك (بوذا) و (عيسى) تعاسات عصورهم فصوروا الرحمة والحنان بصورة دين وكان الناس يتشوقون منذ زمان الى رحمة وحنان ينجيانهم من شقاء عام . ووحد محمد الدين فألف بين قلوب قوم كان بعضهم لبعض عدواً . وجندى نابغة صار نابليون تمثل الرغبة فى المجد الحربى والزهو بنشر الثورة ذلك ما اشتهرت به فى عصره أمة طاف بها خمسة عشر عاماً أنحاء أوروبا وراء أغراض لم تكن الاَّ ضرباً من الجنون

ان قواد البشر هم الذين يمثلون مبادئ البشر ويعملون على نشرها وان شئت فقل قائد الناس مبادئهم . ويتم النصر المبادئ متى قام للدفاع عنها متهوسون ومؤمنون . ولا عبرة بما اذا كانت على حق أو باطل . بل ان التاريخ يفيدنا أن أكبرها بطلاناً أكبرها أثراً فى فتنة الناس . وحتى الآن لا نعلم أنه أصاب الدنيا انقلاب أو سقطت حضارة كان يظهر أنها خالدة أو قامت حضارة على أطلالها الاَّ اذا كان ذلك باسم مبادئ يخجل العقل منها . وليست مملكة السموات هى التى

هيئت لفقراء العقول كما جاء بتوكيده الإنجيل بل مملكة الأرض على شريطة أن يكونوا من ذوى اليقين الذى يرفع الجبال الراسيات . وعلى الفلاسفة الذين يقتلون الأدهار فى هدم ما بناه المؤمنون فى يوم واحد أن يخروا لهم ساجدين . فانهم حلقة من سلسلة تلك القوى الخفية المهيمنة على الكائنات . ولقد جاءوا بأعظم الحوادث التى خلدت فى بطون التاريخ

جاءوا للناس بالأوهام . والناس عاشوا بتلك الأوهام المخيفة الجذابة الباطلة . وستبقى مصدر حياتهم فى المستقبل . فان قيل أنها طيف لا حقيقة له قلنا طيف وجب احترامه . فبفضله عرف أباؤنا حلاوة الأمل فانطلقوا وراء تلك الأوهام انطلاق الشجاع أصابته جنة . وأنقذونا من الهمجية الأولى . وأوصلونا الى ما نحن فيه الآن . كذلك كانت الأوهام أشد عوامل الحضارة تأثيراً . الوهم هو الذى شاد الأهرام وغطى وجه مصر بصخر مصنوع مدى خمسة آلاف عام . والوهم هو الذى بنى فى القرون الوسطى تلك البيع الضخمة الهائلة . ورمى بالغرب فوق الشرق للاستيلاء على أحد القبور . والوهم هو

الذى أسس أدياناً دان بها نصف البشر . والوهم شاد أكبر الممالك وأباد أعظم الدول . وهكذا بذلت الإنسانية جل مجهودها وراء الخيال لا طلباً للحقيقة . وما كان لها أن تصل الى أغراضها الوهمية . ولكنها فى سيرها حققت الرقى فى كل معنىً . وما كانت لتطلب منه شيئاً

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم

الفصل الأوّل

كيف تذبل الحضارة فتموت

تحلل الأنواع النفسية — كيف تنعدم الكفاءة الوراثية فى زمن قصير بعد أن احتاجت فى تكونها الى دهر طويل — فى أنه ينبغى للأمة زمن طويل لتبلغ ذروة الكمال الممكن وقد لا تحتاج الاّ الى زمن قصير لتنحط الى الدرك الاسفل — فى أن أهم عوامل انحطاط الأمة انحطاط خلقها — فى أن طريقة انحلال المدنية واحدة عند جميع الأمم حتى الآن — فى علامات الانحطاط البادية فى بعض الأمم اللاتينية — فى نمو حب الذات — فى ضعف الهمة الذاتية والارادة — فى انحطاط الخلق والآداب — فى الشبيبة الحاضرة — فيما قد يكون للاشتراكية من التأثير — فى أخطارها وقوتها — فى أنها تقود الحضارة التى تمنى بها الى تطورات وحشية صرفة — فى الأمم التى يجوز انتصار الاشتراكية فيها

شأن الأنواع النفسية فى عدم الدوام شأن الأنواع

التشريحية أى الجسمانية . لأن أحوال البيئة التى تقتضى وجودها لا تدوم مدى الدهر . فاذا تغيرت تلك الأحوال لا تلبث عناصر المزاج العقلى التى كانت مرتكزة عليها أن تتضاءل حتى تنعدم . فهناك اذن نواميس طبيعية تحكم على خليات العقل كما تحكم على خليات الجسم . وهى ظاهرة الأثر فى جميع الكائنات . ومن مقتضى تلك النواميس أن الزمن الذى يلزم لانعدام الأعضاء التى تتكوّن الذات منها أقصر جداً من الزمن المقتضى لتكوينها . ذلك لأن العضو الذى لا يعمل يعدم خاصية العمل بلا توانٍ كعيون السمك التى تعيش فى المياه خلال الصخور يضعف نورها ويصير ذلك الضعف وراثياً مع الزمن واذا نظرنا الى حياة الانسان على قصرها وجدنا أن العضو الذى لم يتكوّن الا بعد أجيال كثيرة بتعدد الوراثة يشل سريعاً اذا بطل استعماله

ولا يشذ المزاج العقلى عن حكم هذه النواميس فالخلية المخية التى لا تعمل تفقد وظيفتها . ومن هنا صح أن بعض الكفاآت العقلية التى تتكون على طول الزمن تزول في وقت قصير . فالشجاعة وقوة الاستنباط والعزيمة والإقدام وغيرها

من صفات الخلق كلها بطيئة التكوين . وهى سريعة الزوال اذا لم تجد محلاً للعمل فيه . ومن هنا يعلم السبب في أن الأمة لا تنال قسطاً من الرقّ الا بمرور العصور الطويلة وأنها قد تهوى الى الحضيض على عجل

واذا أمعنا النظر فى أسباب سقوط جميع الأمم التى يذكرها التاريخ بلا استثناء لا فرق فى ذلك بين الرومان أو العجم أو غير هؤلاء وهؤلاء وجدنا أن العامل القوى فى انحلالها تغير طرأ على مزاجها العقلى ترجع علته الى انحطاط الخلق . ولست أعلم أن دولة واحدة سقطت لانحطاط الذكاء فى قومها . فطريقة انحلال المدنيات واحدة . حتى أن الانسان ليتساءل كما فعل أحد الشعراء ان كان التاريخ الذى امتلأت بهِ المجلدات العديدة صفحات كثيرة أو هو فى الحقيقة صفحة متكررة

اذا بلغت الأمة ذروة الحضارة والقوة فأمست فى مأمن من غارة الجار ومالت الى التمتع بنعمة السلام والمعيشة الراضية التى هى بنت اليسر ماتت فضائلها الحربية وتجدد لها من الحاجات بقدر ما زاد فى حضارتها . وتمكن حب الذات من النفوس ولم يعد من همها الاَّ سرعة التمتع بالخيرات التى

نالتها على عجل . فتنصرف الهمم عن الاشتغال بالمصالح العامة. وتضيع في الناس الفضائل التى كانت سبباً فى عظمة الأمة . وحينئذٍ يغير عليها جارها من الأمم المتبربرة او التى هى فى حكمها . لأنه ان كان أقل منهـا حضارة فهو أشد خيالاً ثم يهدم حضارتها ويقيم على أطلالها حضارة أخرى . ذلك ما جرى للرومانيين والفرس فانهم على ما كانوا عليه من احكام النظام شتت البربر شمل الدولة الأولى كما شتت العرب شمل الثانية . ومن المحقق أن الذى أعوز المغلوب لم يكن هو العقل والذكاء . بل أنه لا مناسبـة فى ذلك بين الغالب والمغلوب . لأن أرقى العقول وأكبر الفطن ظهرت فى روما وهى حبلى بموجبات سقوطهـا أعنى فى عصر الأمبراطرة الأول . ففى ذلك الزمان نبغ أهل الفنون والأدباء والعلمـاء . والى ذلك العصر ترجع جميع الأعمال التى بنى عليهـا مجد تلك الأمـة الباذخ . ولكنها كانت أضاعت العامل الأساسى الذى لا يقوم الذكاء مقامه مهما بلغ . ألا وهو الخلق

كان للرومانيين الأولين حاجات قليلة وخيال قوى هو عظمة روما . وكان هذا الخيال مستولياً على جميع القلوب .

وكل وطنى كان يفديه بالمال والنفس والعيال . فلما صارت روما قطب دائرة الدنيا وأغنى مدينة في العالم جعل الأجانب ينسلون اليها من كل حدب فمنحتهم فى آخر الأمر لقب وطنيين . وما كان لهم حظ الاَّ التمتع بزخرفها . وما كان لهم عناية بعزها وعلو مكانتها . أصبحت تلك المدينة الكبرى محشراً فيه الخلائق من جميع الأجناس . الاَّ أنها لم تكن اذ ذاك روما . وكانت تلوح عليها فى الظاهر علامات الحياة . ولكنها كانت لفظت روحها منذ عهد بعيد

وهناك أسباب شبيهة بالتى سبقت تهدد بقاء حضارتنا الراقية ويزاد عليها أسباب جديدة آتية من التغير الذى طرأ على الأفكار بتأثير الاكتشافات العلمية العصرية . فقد بدل العلم بأفكارنا الأولى أفكاراً أخرى . وأفقد ما كان للمبادئ الاجتماعية والدينية من التأثير فى الناس . وأزاح الستار للإنسان فعلم مقدار دقة مكانه فى هذا الوجود . وعلم أن الطبيعة غير شاعرة به فيها . وفقه بأن الذى كان يسميه حرية ليس الاَّ الجهل بأسباب الاسترقاق . وأن شأنه فى الحياة الدنيا أن يكون عبداً بين مخالب الأقدار التى تدفعه بالقهر

عنه . وأيقن بأن الطبيعة لا تعرف تلك العاطفة التى يسميها الرحمة . وأن الرقى الذى وصلت اليه الإنسانية لم تلده الطبيعة الاّ بعامل التفاعل بين العناصر الكونية قويها يدق عنق ضعيفها . تلك أفكار شديدة الوقع يقف منها الدم جامداً فى عروقه . وهى تخالف معتقدات آبائنا الذين كانوا بها فى عيشة راضية . وقد ولدت فى النفوس شكوكاً مزعجة . وجلبت على أهل العقول الصغيرة فوضى الأفكار التى يمتاز بها المرء فى هذا الزمان . وغيرت تلك الشكوك أطوار الشبيبة المشتغلة بالآداب والفنون . فغرست فيها جموداً مشوباً بالكآبة . وذلك أفقدها الإرادة . ونزع منها القدرة على الاهتمام بأى أمر . وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية دون سواها

لاحظ أحد كبار الكتّاب فى هذا العصر ملاحظة أصاب بها الواقع وهو (أن الحسن النسبي متسلط على ملكة التصور فى هذا الزمان) وأراد أحد وزراء المعارف أن يشرح هذه المشاهدة فى خطابة ألقاها حديثاً فقال وملامحه تدل على سروره من نفسه « ان حلول المبادئ النسبية محل المبادئ الكلية فى جميع معارف الانسان هى أكبر الفتوحات

التى أتانا العلم بها » على أن هذا الفتح قديم فى الحقيقة لا جديد . ففلاسفة الهند كانوا يقولون به منذ عشرة قرون . وليس مما يسرنا رجوعه عندنا مرة ثانيـة . لأن الخطر كل الخطر ناشئ على الأخص من فقدان التصديق بالمعتقدات التى كانت حياة الأمم قائمة عليها . وأنى لا أعرف من أول التاريخ حتى الآن حضارة أو نظاماً أو معتقداً يرجع فيه الى مبادئ ليس لها الا قيمة نسبية . فان قيل أن المستقبل فى الظاهر لمذاهب الاشتراكيين التى يردها العقل فالسبب فى ذلك أن تلك المذاهب هى التى يدعى القائمون بنشرها أنها مشتملة على حقيقة كلية . ومن عادة الجموع أنها تلتف حول الذين يدعونها الى الحقائق المطلقة ولا تعتد بمن عداهم . ولا يكون الرجل سياسياً الا اذا سبر روح الجموع ووقف على حقيقة أخلاقها وترك التجريدات الفلسفية ظهرياً فان الاشياء لا تتغير الا قليلاً . وانما الذى يتغير صورهـا والفطن هو الذى يستخدم تلك الصور

نعم ليس فى وسعنا أن نعرف من حقيقة الوجود الاَّ ما ظهر أعنى حالات نفسية قيمتها نسبية بالضرورة . لكن اذا

نظرنا الى الجهة الاجتماعية جاز لنا أن نقول بأن لكل عصر ولكل أمة أحوالاً وآداباً ونظامات ذات معنى كلى . ولا بقاء لتلك الأمة الا بذلك كله . فاذا قام الجدل عليه وتطرق الشك فيه الى العقول فقد اقتربت ساعة الأمة لا محالة

هذه حقائق ليس هناك حرج من تقريرها فما من علم ينكرها والضرر كل الضرر فى تقرير ما يخالفها أما مذهب العدمية الفلسفية الذى يتصدى لبثه بعض أهل الرأى فى ضعفاء العقول فانه يفضى بهؤلاء الى اعتقاد أن نظام الهيئة الاجتماعية الحاضر نظام جائر لا رحمة فيه البتة . وأن طبقات الناس التى فطروا عليها ضرب من الهزء والسخرية . ويغرس فى قلوبهم بغض ما هم عليه من كل شئ ويقودهم مباشرة الى الاشتراكية والفوضى . وساسة هذا الزمان شديدو الاعتقاد بتأثير النظامات ضعيفو الإيمان بالمبادئ . مع أن العلم يكشف القناع لهم عن اشتقاق الأولى من الثانية وأن بقاء النتائج مشروط على الدوام ببقاء المقدمات . فالمبادئ عبارة عما فى الكائنات من العوامل الباطنة . واذا انعدمت تهدمت بانعدامها الأسس الخفية التى ترتكز عليها النظامات والحضارة .

وكذلك كان أشد أوقات الأمم محنة هو الزمان الذى ذهبت فيه مبادئها الى حيث دفنت معتقداتها

واذا انتقلنا من المقدمات الى النتائج وجب علينا التسليم بأن علامات الانحطاط أصبحت بادية فى معظم الأمم الأوروباوية وعلى الأخص فى الأمم المعبر عنها باللاتينية سواء جاءها هذا الوصف من حيث الأصل أو من حيث التقاليد والتربية . فتراها تفقد كل يوم شيئاً من قوة الاستنباط والهمة والإدارة والكفاءة للعمل . وتكاد تكتفى بسد حاجاتها المادية . وهذه كل يوم فى ازدياد . أما العائلة فصائرة الى الانحلال . وقوى المجتمع آخذة فى التمزق . والغضب والحرج ينتشران فى جميع الطبقات من أحقر الفقراء الى أكبر الاغنياء . وأشبه الإنسان فى هذا الزمان مركباً فقدت ربانها فهامت كما تشاء الأقدار أنى تسيرها الرياح . وأخذ يضرب فى أودية الفراغ التى كانت تملأها الآلهة فجعلتها العلوم قاعاً صفصفاً . فلما أضاع الإنسان ربه فقد الرجاء . وقويت فى الجموع حاسة التأثر . وصارت سريعة التحول الى الدرجة القصوى . ولم يعد أمامها من سد يرد جماحها . فهى تموج بلا انقطاع منتقلة من جنون الفوضى

الى خنوع الاستبـداد . مجرد القول يثيرها . ولهـا كل يوم معبود جديد تسجد له فى الصباح وتعدمه فى المساء . يخيل لك أنها تجدّ فى طلب الحرية . وهى فى الحقيقة تطاردهـا وتسأل الحـكومة أن تضع فى أعناقها سلاسل وأغلالاً . تقدم الطاعة العمياء لأحقر شيعتهـا وأضيق المستبدين نظراً . والقوّالون الذين يظنون أنهم يقودونها وهم انما يسيرون خلفها لا يفرقون بين من ملكه الضجر وهاجت اعصابه فطلب كل يوم سيداً جديداً وبين روح الاستقـلال الذى يأبى الخنوع لسيد مهما كان . الحـكومة على اختلاف مسمياتها هى المعبود الذى تستقبله الأحزاب كلها . يطلبون منها كل يوم قيـداً جديداً . وحماية تزيد فى ثقل حملها على الناس يرغبون اليها أن تحيط الأمة فى دقائق الأعمال وجلائلها بنظامات أشد من نظامات البيزنطيين وأكبر استبداداً . وترى الشبيبة كل يوم مائلة عن الأعمال التى تقتضى التعقل وقوة الاستنباط والهمة والمجهود الذاتى والإرادة . تجزع من التبعـة وان صغرت . وتكتفى بالانزواء فى وظائف الحـكومة الدنيا . والتجار يجهلون طريق الاستعمار . والذين فى المستعمرات هم

الموظفون . [١] واستعاض رجال السياسة الهمة والعمل بمناقشات شخصيـة يرتاع الإنسان من تجردها عن المعنى . كما استعاضت الجموع تينك الصفين بالاندفاع أو الغضب الذى يغيب مع شمس يومه . وحل محلهما فى المتعلمين وجدان تبلله دموع العجز وقد اختلطت فيه صوَر الأشياء ثم أقوال فاترة يندبون بها شقاء هـذا الوجود . وأنّى دنوت وجدت حب الذات بالغاً حده . وأمة هذه حالها لا يكون للفرد منها همّ الا بذاته . وهنالك تلقى الضمائر سلاحها . وتنحط درجة الآداب العامة الى أن تزول شيئاً فشيئاً . [٢] ويفقـد المرء كل قدرة

---

(١) انقل هنا عن جريدة (السيكل) نبـذة من خطاب القاه موسيو (اتيين) وكيل نظارة المستعمرات فى مجلس النواب بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٩٠ قال « يبلغ سكان (قوشنشين) ١٩٨٠٠٠٠٠٠ نسمة بينها ١٩٦٠٠ من الفرنساويين منهم ١٩٢٠٠ موظفون ويحكمها مجلس ينتخبه هؤلاء ولها نائب فى مجلس الشورى أفهل ترجون أن لا تنتشر الفوضى فى تلك البلاد (ضجيج وضحك من أماكن كثيرة) أتعلمون نتائج هذا التدبير وانه ينجم عنه أن الميزانية مع أنها سقطت الى ٢٢ مليوناً تبتلع الادارة منها تسعة ملايين وقد كنت عمدت فى سنة ١٨٧٧ الى الاقلال من الموظفين فأنقصت المال المخصص لهم بمقدار ٣٩٥٠٠٠٠٠٠ فرنك وكان ذلك فى شهر اكتوبر وفى شهر دسمبر سقطت الوزارة التى كنت منها وفى شهر مارس كان الذين أعفيتهم من الخدمة عادوا كلهم الى وظائفهم »

(٢) يعظم خطر انحطاط الآداب اذا نزل ببعض الطبقات كطائفة القضاة والموثقين الذين كانوا قديماً يمتازون بالعفة امتياز الجندى بشجاعته وقد سقطت

على قياد نفسه . فلا يعود يضبط ميوله . ومن لم يسد نفسه ساد غيره عليه

من الصعب تغيير هذا الحال . اذ يجب علينا قبل كل شئ أن نغير طريقة تربيتنا اللاتينية المحزنة فانها تجردنا من

آداب الموثقين فى هذا العصر الى درجة سحيقة فان الاحصاء الرسمى يدل على أن نسبة المتهمين منهم بلغت ٤٣ فى كل ١٠٫٠٠٠ مع ان نسبة المتهمين فى الأمة كلها لا تزيد عن واحد فى مثل ذلك العدد وقرأت في الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٩٠ النبذة الآتية من تقرير رفعه ناظر الحقانية الى رئيس الجمهورية قال : «زادت المصائب التى أقلقت الأمة منذ سنة ١٨٤٠ حتى اضطر أحد سلفائى سنة ١٨٧٦ الى الفات النيابة لحالة الموثقين الفاتاً خاصاً لأن الرفت والمصائب التى كانت تقع في ذلك الحين أخذت صبغة مخيفة لم تعهد من قبل فزاد عدد هذه الوقائع المحزنة من (٣١) سنة ١٨٨٢ الى (٤١) سنة ١٨٨٣ الى (٥٤) سنة ١٨٨٤ الى (٧١) سنة ١٨٨٦ وبلغ مجموع ما اختلسه الموثقون بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٨٦ اثنين وستين مليوناً وفى سنة ١٨٨٩ أخليت وظائف مائة وثلاثة موثقين بعضهم بالعزل والبعض باجباره على ترك وظيفته . واذا جمعنا الى هذه الحوادث سقوط المشروعات المالية الكبيرة مثل بنك (الكنتوار ديسكونت) وبنك الخصم والتوفير وبناما وغيرها وجب علينا الاقرار بأن للاشتراكيين بعض العذر فى سخطهم على آداب الطبقات التى تدير شؤون الأمة ومن نكد الحظ أن هذا الانحطاط الأدبى باد فى جميع الأمم اللاتينية كما تدل عليه فضيحة البنوكة الرسمية فى ايتاليا حيث ظهر فيها أن أرفع رجال السياسة كانوا يسرقون الأموال بغير حساب ثم افلاس (البرتغال) والحالة المالية التعيسة الجارية فى اسبانيا وايتاليا والسقوط العميق الذى وقعت فيه الجمهوريات اللاتينية فى أمريكا كل ذلك يثبت أنه قد أصاب خلق بعض الأمم وآدابها مرض لا دواء له وأن شأنهم فى الوجود مشرف على الزوال

قوة الإستنباط ومن كل همة ان كانت الوراثة تركت فينا أثراً مما ذكر. ثم هى تقتل ملكة الاستقلال العقلى لأنها لا تبقى للشبيبة مطمحاً الا المسابقة فى الامتحانات. وذلك أمر ممقوت لا يقتضى الا اجهاد الحافظة. ونتيجته أن يتولى جميع الشؤون فى الأمة أناس تنحصر أهليتهم فى الاستسلام الى التقليد وهم لذلك أقل العاملين جدارة بولاية الأعمال التى تطلب الهمة الذاتية والإقدام. زار (جيزو) المدارس الانجليزية فقال له بعض كبار المعلمين: «انى أحاول أن أصب شيئاً من الحديد فى روح التلاميذ» فأنى ترى فى الأمم اللاتينية معلمين ونظامات تعليم تؤدى الى مثل هذا الخيال. ولعلّ النظام العسكرى يحققه. وعلى كل حال فهو وحده الوسيلة اليه. فأهم الشروط التى تلزم لنهوض الأمم المائلة الى السقوط تعميم نظام الجندية وجعله قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة

تلاقى الأمم اللاتينية صعوبة فى البقاء تحت ظل شرائع حرة بعيدة عن الاستبداد بعدها عن الفوضى. وتلك الصعوبة آتية من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الامة ملكة ضبط

نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة الى حب الذات . ومن السهل أن يدرك المتأمل بغض الجموع مثل هذه الشرائع لأن الجموع ميالة الى الحكم القيصري رجاء أن ينيلها المساواة في التسخير لا فى الحرية التى لا تكاد تأبه بها . ولكن الذى يصعب ادراكه نفور الطبقات المستنيرة من النظامات الحرة ألهمّ الا اذا حملناه على ما ورثناه عن آبائنا الأولين . مع أن النبوغ فى كل معنى وعلى الأخص رقّ المدارك لا يجد جوًّا يسبح فيه أصفى من جوّ هذه النظامات . ولعل العيب الوحيد فيها عند طلاب المساواة على كل حال هو صلاحيتها لتكوين طوائف عقلية ممتازة ذات قوة عظمى . وأما أشد النظامات عبثاً بالأخلاق وبالعقول فهو النظام القيصرى على اختلاف أنواعه . ولا فضل له الاّ أنه يسوى بين جميع الناس فى انحطاط النفس والهوان فى المذلة . وهو أليق النظامات بالأمم الهاوية الى السقوط . لذلك ترجع اليه ما وجدت الى الرجوع سبيلاً وبهجة لباس قائد أيًّا كان يجرها الى تلك الهاوية . ومتى وصلت الأمة الى هذا الدور فقد تولى زمانها ودنا سقوطها

عهد التاريخ بالقيصرية أنها تظهر فى الحضارة ابّان

نهوضها وابّان سقوطها وهى الآن تدخل فى تطوّر ظاهر للعيان حيث تبدو لنا باسم الاشتراكية . والاشتراكية فناء الفرد فى الدولة . بل هى أشدّ من القيصرية لأن أكبر المستبدين عتوًّا يخشى العاقبة ولكن حكومة الجمع لا سبيل لأخذها بتبعة وان عظمت

الاشتراكية فى عصرنا أكبر الأخطار التى تهدد الأمم الأوروبية فى وجودها . وهى لا محالة مجهزة عليها فى سقوطها بعد أن عملت فيها العوامل الأخرى وقد تنقضى بسببها الحضارات الغربية

ولكي تقف على مقدار الخطر الذى ينجم عن هذا المذهب وعلى شدة تأثيره انظر الى قوة استخلاص النفوس اليه لا الى التعاليم التى جاء بها . فكأنى به وقد أصبح الدين الجديد لكل من شقت عليه الحياة وشعر بوقر الأحوال الاقتصادية الناشئة عن حضارة هذا الزمان . وأولئك جموع لا تحصى . وسيملأ هذا المذهب السموات بعد أن أمست خالية . ويقوم فى نفوس الذين ضعفوا عن احتمال الحياة بلا خيال مقام الجنة التى كانوا يرونها خلال نوافذ الجوامع

والصوامع . عشاق هذا الدين القادم كل يوم فى ازدياد . وعما قريب تظهر ضحاياه . وحينئذٍ يصير أحد المعتقدات الدينية التي تهب الأمم لصوتها . والتي تملك القلوب ملكاً مطلقاً

أما كون مذهب الاشتراكية يفضى بالأمة الى أخس درجات الاسترقاق ويقتل فى نفوس من خضعوا لحكمه كل همة وكل استقلال فذلك مالا جدال فيه . غير أنه لا يعرف ذلك الاَّ علماء النفس الواقفون على أحوال الحياة الاَّ أنه بعيد عن مخيلات الجموع لأنها لا تسلم بمثل هذه الأدلة . والأدلة التى تقنع بها لا تأتى من طريق العقل

وأما كون هذا المذهب بعيداً عن التسليم به من كل من له أدنى ذوق سليم فهو أيضاً مما لا ينكره أحد . الا أن المذاهب الدينية التى ملكت قيادنا مدى الدهور حتى الآن كانت بعيدة أيضاً عن كل ذوق سليم . وما كان ذلك مانعاً من خضوع أكبر العقول لسلطانها . ان الإنسان لا يصغى فى المعتقدات لغير شعوره اللاتنبهى . وللشعور اللاتنبهى دائرة لا محل للعقل بين محتوياتها

وعليه فلا مناص للأمم الأوروباوية من الرضوخ لدور

الاشتراكية مهما احتوى من خطر عملاً بطبيعة المزاج العقلى الذى خلقه الزمان فيها . وستدخل به في آخر دور من أدوار الانحطاط لأنه يهبط بالحضارة الى الدرك الأسفل . ويمهد السبيل لغارة البربر التى تهددنا بالخراب

واذا استثنينا الأمة الروسية التى هى أمة أسيوية من الجهة النفسية أكثر منها أوروبية لا نرى في أوروبا غير الانكليز لهم عزيمة كبيرة ومعتقدات ثابتة وخلق يمثل الى الاستقلال يحميهم من سبيل الدين الجديد . أما ألمانيا الجديدة فأنها ستكون من أول ضحاياه بالرغم من مخايل الرقى التى تظهر عليها . بدليل نجاح الطوائف الاشتراكية المنتشرة فى ربوعها . ومن المحقق أن الاشتراكية التى تفضى الى خرابها ستلبس ثوباً علمياً خشناً قد يليق بأمة تصورية يتعذر وجودها فى بنى الإنسان ولكن المولود العقلى الأخير سيكون أشد تعصباً وأكبر قوة من اخوته السابقين . وألمانيا اكثر الأمم استعداداً لقبوله فانها فاقت على الكل فى فقدان ملكة الاستنباط والاستقلال وعادة حكم الأمة نفسها (١)

---

(١) أكبر الكتاب الألمانيين موافقون كل الموافقة على هذا . جاء في كتاب

أما الروسيا فانها كانت الى عهد قريب على نظام (المير) أعنى نظام الاشتراكية المعروفة عند الأمم الفطرية وهو أكمل صور الاشتراكية . بل هى لم تخلص منه تماماً . ولا يمكن أن تفكر فى الرجوع الى تلك الحال المنحطة فلها مستقبل آخر . اذ لا شبهة فى أنها هى التى ستسوق الجموع البربرية على الأمم الأوروبية لتهضم حضارتها بعد أن تكون الحروب الاقتصادية ومذاهب الاشتراكية مهدت لها السبيل

الاّ أن هذه الساعة لم تأتِ بعد ولا يزال بيننا وبينها بعض المراحل . على أن ما فى الاشتراكية من شدة العسف يمنع من بقائها وستجعل الناس يترحمون على عصر (تيبير)

موسيو (زيجلر) الاستاذ فى كلية (استراسبورج) : « اذا كان الميل العام فى انكلتره الى حكومة الأمة نفسها فان التعويل على الحكومة هو ما تمتاز به الأمة الألمانية . فنحن أمة وضعت تحت الوصاية منذ دهر طويل أضف الى ذلك أن يد (بسمارك) القوية افقدتنا مدى العشرين سنة الماضية ملكة الاستنباط والشعور بالتبعة وان كانت جبلتنا في مأمن مما كنا نخاف ومن أجله نلجأ الى الحكومة في كل حادث جلل بل في الحوادث الصغيرة أيضاً ونكل كل شيء لعنايتها » اه المؤلف

وكأنى بالمؤلف ينزل مشاعر قومه منزلة الواقع وكأنى بموسيو زيجلر يشجع قومه ويستنهضهم الى أبعد ما وصلوا اليه فالظاهر للعيان أن الألمان أمة جد واقدام وهمة واستنباط ومثابرة ورقى مستمر

و (كاليجولا) . إنّا لنعجب كيف احتمل الرومانيون مظالم هذين الجبارين وأمثالهما . ولكن العجب يزول متى عرفنا أنهم كانوا قطعوا أدوار الحروب الاجتماعية والأهلية وقاسوا أنواع الحرمان فى النفى حتى فقدوا خلقهم ورأوا فى أولئك الظالمين آخر وسيلة للسلامة التى كانوا يرجونها واحتملوا منهم كل حيف لأنهم ما كانوا يعرفون كيف يستعيضونهم بغيرهم . والواقع أنهم لم يجدوا بديلاً عنهم بعد زوالهم بل جرفهم سيل البربر وحطم مدنيتهم . تلك كانت عاقبة دولة الرومان وتلك دورة التاريخ فى الزمان

الفصل الثانى

خلاصة عامة

نوّهنا فى مقدمة هذا الكتاب بأنه موجز لخصنا فيه ما كتبناه فى تاريخ حضارات الأمم . فكل فصل من فصوله بمثابة خلاصة لمؤلف سابق . وعليه فمن الصعب تلخيص هذا التلخيص ولكنى سأحاول ذلك لفائدة القراء الذين يعوزهم فراغ الوقت وأقدم لهم المبادىء الأساسية التى تشتمل عليها فلسفة هذا الكتاب فى صورة قضايا موجزة

لكل أمة خواص نفسية ثابتة ثبات خواصها الجسمية تقريباً . والنوع النفسى كالنوع الجسمى أى المادى لا يتغير الاَّ على طول السنين ومرّ الأجيال

يوجد بجانب الخواص النفسية الثابتة الوراثية التى يتكون منها المزاج العقلى لكل أمة خواص ثانوية تنشأ من تغيرات البيئة

وتتجدد على الدوام فيخيل لذلك أن الأمة فى تحول مستمر كبير

المزاج العقلى لكل أمة هو خلاصة أفرادها الأحياء وأسلافهم الذين كونوها . فالشأن الأول فى حياة الأمم للأموات لا للأحياء لأنهم هم الذين خلقوا شعورها الأدبى وهيأوا الأسباب البعيدة فى سيرها

تمتاز الأمم بعضها عن بعض بفروق كما امتازت بفروق نوعية . والأولى ملازمة للثانية . والفرق ضعيف بين أفراد المثال الوسط فى أمة ومثلهم فى أمة أخرى وعظيم جداً بين أفراد الطبقات الراقية . ومن هذه المقارنة يتبين أن الفارق بين الأمم الراقيـة وبين الأمم المنحطة هو فى احتواء الأولى عدداً غير قليل من ذوى العقول الكبيرة وفى أن ذلك غير موجود فى الثانية

يتساوى أفراد الأمة المنحطة فيما بينهم مساواة واضحة وكلما ارتقت الأمة وجدت الفروق بينهم. فأثر الحضارة الذى لا بد منه هو ايجاد الفروق بين الأمم وبين الأفراد . وعليه فهى سائرة نحو التفاوت لا نحو المساواة

حياة الأمة ومظاهر حضارتهـا مرآة روحها تدل على

أمر خفى لكنه موجود . فالحوادث الخارجية أثر ظاهر لنسيج خفى هو الفعال

ليس الشأن الأول فى حياة الأمم للاتفاق ولا للأحوال الخارجية ولا للنظامات السياسية على الأخص بل لخلق كل أمة

لما كانت عناصر مدنية كل أمة هي الدلالة الخارجية على مزاجها العقلى أعنى ممثلة حال تلك الأمة من حيث الكيفية الخاصة بها في شعورها بالمحسوسات وتصوّرها إياها فمن المتعذر نقل تلك العناصر الى أمة أخرى من دون تغيير فيها . وانما الذى يمكن نقله هي الصوَر الظاهرة السطحية التى لا قيمة لها

اختلاف المزاج العقلى بحسب الأمم يجعل كل واحدة تتصور الوجود بصورة خاصة فهى اذن تختلف فى الحس والعقل والعمل . ويقوم النزاع بينهما على جميع المسائل متى احتكت ببعضها . وهذا التنازع هو سبب جميع الحروب المدونة فى التاريخ . فحروب الفتح والحروب الدينية وحروب العائلات المالكة كلها فى الحقيقة حروب جنسية

لا يتكون من مجموع أفراد مختلفى الأصل شعب مستقل . أعنى أنهم لا يكون لهم روح يشتركون فيها كلهم الاّ اذا

كثر تبادل النسل بينهم مدة طويلة . واتحدت معيشتهم فى بيئات متحدة . وصارت مشاعرهم واحدة ومنافعهم مشتركة . ومعتقداتهم عامة

لا يكاد يوجد فى الأمم المتحضرة شعوب أصلية بل ليس هناك الا شعوب صناعية تكونت من أحوال تاريخية

لا يؤثر تغيير البيئة تأثيراً شديداً الاّ فى الشعوب الجديدة أعنى التى تكونت من أخلاط شعبية تفككت أخلاقها الموروثة بكثرة التناسل. فلا يفلّ الوراثة الا الوراثة . واذا لم يكن للتناسل من القوة ما يكفى لزعزعة الأخلاق وتشتيتها كان تأثير تغيير البيئة قاصراً على التخريب . وقد يموت الشعب القديم ولا يقبل التغيير الذى تقتضيه ضرورة انطباعه على بيئة جديدة

تبلغ الأمة ذروة مجدها متى تم لها روح قوى عام وتسقط متى تحلل هذا الروح . وأهم العوامل في هذا التحليل دخول عنصر أجنبي في الأمة

تتأثر الأنواع النفسية كالأنواع المادية بالزمان كلاهما يهرم ويموت . وتحتاج كلها في تكوينها الى زمن طويل . وقد

تزول في وقت قصير . اذ يكفي أن تضطرب وظائف أعضائها ليحدث فيها تطور نحو السقوط وقد تكون نتيجته الدمار العاجل. فالأمم تقطع قروناً طوالاً قبل أن يثبت لها مزاج عقلي خاص . وقد تفقده في برهة يسيرة . فالشقة التي تسير فيها الى الحضارة بعيدة . ومنحدر السقوط قصير غالباً

المبادئ من أهم عوامل الحضارة بعد الخلق ولكنها لا تؤثر الا بعد أن تتطور على مهل حتى تصير شعوراً وتصبح جزءاً من الخلق نفسه وتخرج بذلك من دائرة البحث والنظر . ولا تزول المبادئ الا بعد مرور دهر طويل . وكل حضارة ترجع الى بعض مبادئ أساسية مسلم بها من الكافة

أهم المبادئ المؤثرة في الحضارة المبادئ الدينية واختلاف الأديان هو السبب البعيد في أعظم حوادث التاريخ . فتاريخ الإنسانية مقترن على الدوام بتاريخ آلهتها . وهؤلاء أبناء خيالنا ولهم مع ذلك سلطان كبير حتى أن تغير أسمائهم كافٍ وحده في قلب نظام العالم بأسره . وظهور آلهة جديدة كان على الدوام طليعة لحضارة مقبلة واختفاؤهم كان على الدوام نذيراً بزوال حضارة مدبرة

تم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

فهرست

مقدمة المؤلف

صفحة

مذاهب المساواة فى العصر الحاضر وروح التاريخ ٢

الباب الأول

طباع الشعوب النفسية

الفصل الاول — روح الشعوب ١٠

الفصل الثانى — حدود تغيير أخلاق الأمة ٢٣

الفصل الثالث — الطبقات النفسية للأمم ٣١

الفصل الرابع — درجات الفروق بين الأفراد والأمم ٤٤

الفصل الخامس — تكوين الأمم التاريخية ٥٤

الباب الثانى

ظهور أخلاق الأمم فى عناصر مدنيتها

صفحة

الفصل الاول — فى أن عناصر المدنية فى كل أمة هى مظاهر روح الأمة فى الخارج ٦٤

الفصل الثانى — كيف تتغير النظامات والديانات واللغات ٨١

الفصل الثالث — كيف تتغير الفنون ٩٨

الباب الثالث

تاريخ الأمم باعتباره مشتقاً من أخلاقها

الفصل الاول — كيف تصدر النظامات عن روح الأمة ١٢٢

صفحة

الفصل الثانى — تطبيق النظريات السابقة على تطوُّر الولايات المتحدة بأمريكا والجمهوريات الأسبانية الأمريكية ١٣١

الفصل الثالث — فى أن تغير روح الأمة يغير من تطوُّرها في الحياة ١٤٥

الباب الرابع

كيف تتحوَّر الصفات النفسية للأمم

الفصل الاول — أثر المبادئ فى حياة الأمم ١٥٦

الفصل الثانى — تأثير المعتقدات الدينية في تطوُّر المدنية ١٧٧

الفصل الثالث — شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم ١٨٦

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم

صفحة

الفصل الاول — كيف تذبل الحضارة فتموت ١٩٦

الفصل الثانى — خلاصة عامة ٢١٥

B12676457
I14127696

AUC - LIBRARY

DATE DUE

6 - FEB 1993

A.U.C
1 - DEC 1993

A.U.C
26 DEC 1994

A.U.C
24 JAN 1995

A.U.C
11 APR 1993

1000003760 0

8 FEB 1988